البابا شنوده الثالث

شخصيات الكتاب المقدس

١ آدَمْ وَحَوّاء
٢ قايين وهابيل



شخصيات الكتاب المقدس

١ آدم وحواء
٢ قايين وهابيل

1- Adam & Eve
2- Cain & Abel

البابا شنودة الثالث

H.H. Pope Shenouda III

Second Reprint — الطبعة الثانية

September 1982 — سبتمبر ١٩٨٢



قداسة البابا المعظم الانبا شنوده الثالث

بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

الـ " ١١٧ "

مقدمة

ليست هذه دراسات فى العهد القديم ، ولا هى مقدمات لأسفاره ، إنما هى تأملات روحية ، تقدم منهجاً تأملياً فى الكتاب .

وقصتها قديمة معى ...

إذ كنت قد قمت بتدريس العهد القديم فى الكلية الإكليريكية ، عقب تخرجى فيها ، من أكتوبر سنة ١٩٤٩ ، أى أكثر من ثلاثين عاماً ... كما قمت بتدريس العهد الجديد من سنة ١٩٥٢ .

وكنت أرى الكتاب - كما قدمه الرب لنا - روحاً وحياة ...
وهذا ما أريد أن أقدمه لك ، أيها القارىء العزيز .

تماماً ، كما قدمته فى محاضرات يوم الثلاثاء بالكاتدرائية الكبرى ، خلال ثلاث سنوات من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٢ م .

وأود من أجلك ، أن أتابع نشر هذه المجموعة ، التى أحب أن تحتفظ بها معك ، كاملة ...

وثق أنك سترى حياتك الخاصة ، من خلال شخصيات الكتاب ... فالنفسية البشرية هى هى ، منذ آدم ، وحواء إلى يومنا هذا ...

ولقد صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة عن « آدم وحواء » ، و « قايين وهابيل » فى ٢٤ فبراير ١٩٨٠ ونفذت فور صدورها . وها نحن نعيد طبعها ، ليحتفظ بها من فاته إقتناؤها قبلاً ...

وسأحاول أن أتابع معك شخصيات العهد القديم ، حتى يوحنا المعمدان ... كما نتناول شخصيات العهد الجديدأيضاً ، إن أحب الرب وعشنا .

وأحتاج إلى صلواتك ، لكيما يعطينى الرب نعمة لإكمال هذا العمل

شنوده الثالث — سبتمبر ١٩٨٢

شخصيات الكتاب

*** قدم لنا الكتاب المقدس ألواناً متنوعة من « أناس الله القديسين » :**

إنها صور متعددة من قديسين ، كل منهم له طابعه الخاص ، يختلفون فى العمر والجنس والوظيفة والحياة الإجتماعية والأسلوب الروحي .

وذلك لكى نتعلم أن القداسة ملك للكل ، وليست وقفاً على فئة معينة من الناس دون غيرها ...

فلم يقدم لنا الكتاب حياة القداسة أو حياة الكمال ، قاصرة على الأنبياء والرسل مثلاً ، أو على الكهنة ورؤساء الكهنة ، أو على صانعى العجائب والمعجزات ، إنما هى للكل ، وهى بإمكان كل أحد ...

*** قدم لنا الكتاب المقدس قديسين فى مراحل متفاوتة من العمر :**

منهم الأطفال مثل صموئيل ، ومنهم الصبيان مثل داود وأرمياء . ومنهم الشباب مثل يوسف الصديق ، و يوناثان ، ومار مرقس و يوحنا الحبيب . ومنهم الرجال الناضجون مثل موسى و بطرس ، ومنهم الشيوخ مثل نوح وأخنوخ وإبراهيم ... وسمعان الشيخ ...

*** قدم لنا رجالاً ككل هؤلاء . كما قدم لنا نسوة قديسات** ... مثل مريم العذراء ، وحنة النبية ، وسارة ، وراعوث ، وإستير ، واليصابات ، ومريم أخت لعازر ... وغيرهن كثيرات ...

*** وكما قدم لنا قديسين متفاوتين فى العمر ، قدم لنا أيضاً قديسين متفاوتين فى المركز الإجتماعى ، وفى الغنى والفقر : فالمسألة أولاً وأخيراً مسألة قلب مستعد لعمل النعمة فيه ، أياً كان مركزه أو وضعه المالى أو وظيفته فى المجتمع .**

وهكذا قدم لنا الكتاب قديسين أغنياء جداً مثل أيوب الصديق ، وأبينا إبراهيم ، و يوسف الرامى . كما قدم لنا فقراء مثل الأرملة التى دفعت من أعوازها فلسين فى الصندوق ، ومثل أرملة صرفة صيدا التى إستضافت إيليا النبى ، ومثل لعازر المسكين الذى كان يستعطى ، وكانت الكلاب تلحس قروحه ...

قدم لنا الكتاب رعاة غنم مثل داود وإسحق و يعقوب ، وصيادى سمك مثل بطرس وإندراوس ، وعشارين مثل متى وزكا ، وملوكاً مثل داود و يوشيا ، ووزراء مثل دانيال و يوسف ، وأسرى حرب مثل الثلاثة فتية ، وأبطالاً مثل شمشون ، وقضاة مثل جدعون ، وطبيباً مثل لوقا ، وكاتباً مثل عزرا ، وخادماً مثل لعازر الدمشقى ...

*** وقدم لنا الكتاب أيضاً قديسين متفاوتين فى ثقافتهم وعلمهم :**

فبينا نرى موسى الذى « تهذب بكل حكمة المصريين » ، وبولس الذى كان من علماء عصره ، وسليمان الذى كان أحكم أهل الأرض فى زمانه ، نرى أيضاً جهال العالم الذين إختارهم الله ليخزى بهم الحكماء ...

*** كذلك قدم لنا الكتاب أمثلة متفاوتة فى البتولية والزواج والترمل ، وكلها كانت تحيا حياة مقدسة طاهرة أحبها الرب ...**

قدم لنا بتوليين قديسين مثل إيليا واليشع و يوحنا المعمدان و يوحنا الحبيب ، ومتزوجين قديسين مثل نوح البار ، و بطرس الرسول ، وأخنوخ أبى الآباء الذى رفعه الله إليه ... كما قدم لنا من عاشوا حياة مقدسة فى الترمل مثل حنة النبية ، ومن تزوجوا بعد ترملهم مثل راعوث ، ومن تزوجوا بأكثر من واحدة مثل إبراهيم وموسى وداود ...

وعلى جبل التجلى ، ظهر السيد المسيح ، محاطاً بإيليا البتول ، وبموسى المتزوج ، والكل يحيط بهم نور عجيب .

وحول الصليب ، كانت مريم العذراء و يوحنا البتول ، ومريم زوجة كلوبا التى أنجبت عدداً كبيراً من البنين والبنات ...

*** قدم لنا الكتاب من عاشوا حياة مقدسة منذ البدء ، ومن جاءوا إلى الرب أخيراً ، ورحمهم الله وقبلهم إليه :**

قدم لنا قديسين من بطون أمهاتهم ، مثل يوحنا المعمدان الذى من بطن أمه إمتلأ من الروح القدس . كما قدم لنا قديسين وقديسات عاشوا فى عمق الخطية قبل لقائهم بالرب ، مثل اللص اليمين ، والمرأة التى بللت قدمى الرب بدموعها ، ومثل راحاب الزانية ، وقدم لنا الكتاب أشخاصاً عاشوا من قبل بعيدين عن الله ، مثل مريم المجدلية التى أخرج منها الرب سبعة شياطين ، والمرأة الكنعانية التى كانت من شعب ملعون أممى ...

وقدم لنا قديسين من مضطهدى الكنيسة ، مثل شاول الطرسوسى ، ومثل الجندى

الذى طعن المسيح بالحربة .

*** قدم لنا الكتاب المقدس شخصيات تحمل ألوانا من الروحيات ، متنوعة ، ومتغايرة ولكننا نراها كلها متكاملة :**

قدم لنا إيليا الشديد النارى ، الذى أغلق السماء ثلاث سنين وستة أشهر فلم تمطر ، والذى قتل المئات من أنبياء البعل وأنبياء السوارى ، وإنتهر آخاب الملك ، وقال لتنزل نار من السماء وتأكل الخمسين فنزلت وأكلتهم . كما قدم لنا الكتاب أرمياء النبى الباكى الذى سكب دموعه ومراثيه .

وأرانا الكتاب كيف أن الله عمل فى الشخصية النارية ، كما عمل فى الشخصية الباكية . وإستخدم الإثنتين فى بناء ملكوته . فليس المهم هونوعية الشخص ، إنما تسليمه لإرادته فى يد المشيئة الإلهية .

فى الكتاب نرى شخصية بطرس الرسول المملوءة غيرة وتسرعاً وإندفاعاً ، مع شخصية توما المملوءة حرصاً وشكاً وتريثاً وحباً للفحص وبعداً عن الإندفاع . وكلاهما فى يد الرب ، يعمل بهما . ونرى فى الكتاب كيف إستخدم الله أناساً كما هم ، بينما غير البعض فحول يوحنا إبن الرعد ، تلميذ المعمدان إلى قلب كله حب ...

*** وكل فضيلة تعجبنا ، نرى شخصيات فى الكتاب تمثلها :**

نرى أيوب يمثل الصبر ، وسمعان الشيخ يمثل الرجاء والإنتظار . نرى داود يمثل التوبة والإنسحاق ، وإبراهيم يمثل الطاعة والإيمان . نرى يعقوب الهادىء المحتمل ، و يوحنا المعمدان المشهور بالشجاعة والمواجهة ، و بولس المملوء نشاطاً وغيرة وحركة وتعليماً كما نرى العذراء المشهورة بالصمت والتأمل ...

إنها باقة من الفضائل متنوعة الأزهار والألوان والعطور :

يقدمها الكتاب المقدس ، فى أشخاص أتقنوها عملياً ، وتركوها لنا كقدوة ومثال . بحيث أننا إن أردنا صفة ما ، أو فضيلة ما ، سنجد حتماً الشخص الذى يعطى لها صورة مثالية . وهكذا يكون الكتاب جامعاً لكل ما نريد .

*** لذلك لا ييأس أحد مفتكراً أن حالته لا تناسب دعوة الله :**

فالله مستعد أن يدعوك كما أنت ، أياً كانت حالتك ، أو ثقافتك ، أوسنك ، أو

مركزك ، أو وضعك الإجتماعى ... إنه « الداعى الكل إلى الخلاص » ... ولعلك تجد مثيلاً لك فى الكتاب المقدس ، قد عمل الله فيه و به ...

لا تقل إذن « لست أصلح » . فليس المهم هوصلاحيتك ، إنما المهم هوعمل الله معك . والله قادر أن يعمل مع الكل . قل له إذن « مستعد قلبى يا الله ، مستعد قلبى » (مز ٥٦) .

*** ومن الأمور المعزية أيضاً فى الكتاب أنه قدم لنا مثاليات مثلنا ، لقديسين كانت لهم ضعفاتهم ونقائصهم وسقطاتهم :**

ولكن روح الله قد عمل فيهم ، وأوصلهم إلى درجات عليا فى القداسة ، على الرغم من هذه الطبيعة التى يمكن أن تضعف أحياناً ، وتسقط ... وما أعمق وأصدق قول الكتاب : « **إيليا ، كان إنساناً ، تحت الآلام مثلنا** ... » **(يع ٥ : ١٧، ١٨) .**

ومع أنه كان تحت الآلام مثلنا ، إلاّ أنه « صلى صلاة » . وإستطاع أن يغلق السماء ، وأن يفتحها .

قدم لنا الكتاب إبراهيم الذى خاف أن يقتلوه ، فقال عن زوجته سارة إنها أخته . و يعقوب الذى خدع أباه ، وسرق بركة أخيه . وشمشون الذى أغرته دليلة ، فكسر نذره . ونوحاً الذى سكر وتعرى ، وداود الذى زنى وقتل ، وتوما الذى شك ، و بطرس الذى أنكر...

لم يقدم لنا الكتاب قديسين معصومين ، أوبشراً من نوع الملائكة ، إنما قدم بشراً مثلنا ، واقعاً لا خيالاً ... قدم النفس البشرية التى نعرفها ، والتى إختبرناها ، « الأوانى الخزافية » السهلة الكسر ، التى عمل فيها الخزاف العظيم ، وصنع منها أوانى للكرامة ، وجعلها رائحة بخور ذكية ، أمام الملائكة والبشر... وكان « فضل القوة لله وليس لنا » (٢ كو ٤ :٧) . أما عن الحروب الروحية التى تعرض لها هؤلاء ، فيعز ينا الكتاب بقوله : « **الحرب للرب . والرب قادر أن يغلب بالكثير وبالقليل** » .

قدم لنا الكتاب المقدس عينات من قديسين ، من نفس نوعنا ، يمكن أن تضعف ، ويمكن أن تسقط ، ويمكن أن تخطىء وأن تزل ...

*** ولكنه قدم لنا فى هؤلاء القديسين الذين أخطأوا ، صوراً رائعة من التوبة . نصف الحقيقة أنهم أخطأوا ، والنصف الآخر، الأروع ، أنهم تابوا ...**

إن الكتاب المقدس صريح وواقعي . إنه يقدم لنا قديسين من نفس طبيعتنا ، التي يمكن أن تخاف ، وأن تشتهي ، وأن تفتر ، وأن تهرب ، وتختبيء من الله ... حتى السبعة ملائكة الذين للسبع كنائس فى آسيا ، نراهم من نفس الطبيعة البشرية العادية :

لذلك حينما ندرس هؤلاء الرعاة ، الذين وصفهم الكتاب بأنهم ملائكة ، لا ننسى أن واحداً منهم كان فاتراً ، لا هو حار ، ولا هو بارد ، وكان الله مزمعاً أن يتقيأه (رؤ٣: ١٦) . ونرى واحداً آخر منهم ، على الرغم من تعبه وكده لأجل الله ، عاد وترك محبته الأولى ، وأرسل له الله قائلاً « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤ٢: ٥) . ونرى ملاكاً ثالثاً من ملائكة هذه الكنائس السبع ، يقول له الرب « إن لك إسماً إنك حى وأنت ميت » (رؤ٣: ١) .

إنها نفس الطبيعة البشرية التي لباقي الناس ... والكتاب المقدس لا يكلمكم من وحى الخيال ، ولا يصور لكم قديسين لهم أجنحة من نور ونار ، و يطيرون فى السماء ، و يسبحون فى أجواء القداسة العليا ...

ولكن بعمل الله القوى الذى عمل فيهم ، بنعمته التى دخلت إلى قلوبهم ، بروحه القدوس الذى أرشدهم وقواهم وأشترك فى العمل معهم ... بهذا قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه ... وتغيروا ...

بطرس الذى خاف ذات مرة أمام جارية وأنكر المسيح ، تحول إلى القديس بطرس الجبار العنيف ، الذى وقف أمام ولاة وملوك ، وقال للشيوخ ولرؤساء الكهنة « ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس » (أع ٥ : ٢١) ... جاهر بالإيمان ، وتعب لأجله ، وصار شعلة من نار ، وصلب ، ومات شهيداً ...

ما هذا يا أبي القديس بطرس ؟ يجيب : لقد كنت ضعيفاً مثلك ، وخائفاً مثلك . لكن الله عمل فى ضعفى ، وروحه قوانى وشددنى ، فشهدت له أمام الكل ...

إذن ، حينما نجد القديس بطرس الرسول قد ملأ الدنيا تبشيراً ، لا نقول إنه من طبيعة أخرى سامية غير طبيعتنا ... كلا ، إنه مثلنا . ولكنه فتح قلبه لعمل الله ، وسلم مشيئته لمشيئة القدوس ...

وإن رأينا إنساناً مثل القديس بولس الرسول ، قد تعب أكثر من جميع الرسل ، وكرز فى كل أرجاء الأرض ، فلا نظن أنه قد ولد هكذا ... وإنما هو نفسه يعترف و يقول : « أنا الذى كنت من قبل مجدفاً ومضطهداً للكنيسة ، ولكنى رحمت لأننى فعلت ذلك بجهل » (١تى ١ : ١٣) ...

وإن عرفنا جباراً من جبابرة الروح والرعاية مثل القديس موسى النبى ، الذى أجرى الله على يديه معجزات فى أرض مصر ، وشق البحر بعصاه ، وضرب الصخرة ففجر منها الماء ، وأنزل من السماء المن والسلوى ... فلا نظن أنه قد ولد هكذا ... بل أنه عاش فى مبدأ حياته كأمير فى قصر فرعون ، بكل ما تحمل الإمارة من رفاهية وتنعم وكبرياء ، معتداً بنفسه ، يضرب المصرى فيقتله . ولكن الله أمسك به ، وعلمه طريقه . أمسكه « إبن النجار » ، بالفارة والمنشار ، وأزال نتوءاته ، وصنفره ، وعمل فيه ، حتى صار قديساً عظيماً لا نستحق التراب الذى يدوسه بقدميه ... « وصار الرجل موسى حليماً جداً ، أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » (عد ١٢ : ٣) .

هذه عينات من الناس ، أخذها الله كما هى ، وعمل فيها ، وعمل معها ، وصارت له ، وأخذت من بهائه ، ومن قوته ...

وبالنسبة إليك ، لا تشابه القديسين فى ضعفاتهم ، وإنما فى طهرهم .

لا تتهاون معتذراً بأن القديسين أنفسهم قد أخطأوا ، إنما أنظر إلى توبتهم وأعماقها العجيبة ، وإلتصاقهم الطبيعى بالله .

*** وحينما نقول إنهم أخطأوا ، فلا نعنى أن حياتهم كلها كانت خطية . بل السقطات كانت الوضع العابر الطارىء فى حياتهم . أما القداسة فكانت الوضع الطبيعى الدائم .**

إذا عرفنا أن داود فى وقت ما ، قد زنى وقتل . فليس معنى هذا أن حياته كلها كانت زنى وقتلاً . وليس معنى هذا أن يتطاول بعض الوعاظ على هذا القديس العظيم ، ولا يتحدثون إلاَّ عن خطيئته بلون من الإستصغار !! و ينسون أنه رجل الصلاة والتسبيح والمزامير ، رجل المزمار والقيثار والعشرة الأوتار ، رجل الإيمان والوداعة ، الذى قال عنه الرب بنفسه « فحصت قلب داود ، فوجدته حسب قلبى » .

إن الشر لم يكن طبيعة فى هذا البار ، الذى حل عليه روح الرب ، والذى هزم جليات ، وإحتمل شاول ، وغفر لشمعى بن جيرا ، وسبح للرب تسابيح جديدة ... إنما هى صفات طارئة ، سمح بها الرب ليعطى قديسه إنسحاقاً ودموعاً ، و يصيره درساً فى التوبة ، كما كان درساً فى الصلاة ، وفى الوداعة ، وفى الشجاعة .

وبنفس الوضع حينما نذكر خوف أبينا إبراهيم ، وقوله عن إمرأته سارة إنها أخته ... لا ننسى أبداً إيمان الرجل ، ونسكه ، وشجاعته ، وكرمه ، وطاعته للرب حتى رفع السكين

ليقدم وحيده المحبوب محرقة ... ولا ننسى وتركه لأهله وعشيرته وسعيه وراء الرب ...

*** كذلك فى حديثنا عن قديسى الكتاب ، ليس المهم نقطة البدء فى حياتهم ، فربما بدأ البعض منهم كأشخاص عاديين . إنما المهم هوما إنتهوا إليه ...**

لقد كانت حياة هؤلاء القديسين ، مجرد مجال عمل فيه الله . ونحن نهتم بهذه النقطة بالذات فى حياة قديسى الكتاب ... يهمنا جداً دور الله فى حياتهم . كيف عاملهم الرب ؟ وكيف عامل غيرهم من الناس الذين إتصلوا بهم ؟ كيف كانت معاملة الله لقديسيه ، وكيف كانت معاملته للأشرار ؟ ومعاملته للساقطين والتائبين وللقائمين ...

إن الكتاب هوسجل جميل لمعاملة الله مع الناس ...

ومن واقع هذه المعاملة نأخذ فكرة عن صفات الله الجميلة ، وعن حبه وطول أناته ، وحكمته وصلاحه ، وقوته وقدرته ... ونأخذ من كل هذا درساً لأنفسنا ومجالاً لتأملاتنا .

*** وفى سير قديسى الكتاب ، لا نريد أن ندرس تاريخاً ، إنما أن نمتص حياة ...**

فالكتاب المقدس لم يقصد به أن يكون كتاب تاريخ ، إنما هو كتاب إيمان ، وكتاب حياة . وهذا هو الفرق بين دراستنا للكتاب ، ودراستنا لكتب التاريخ . التاريخ يذكر أحداثاً ، ولكننا هنا لا نفحص الأحداث ، بقدر ما نفحص حالة القلب .

إننا من خلال الأحداث ، ندرس النفس البشرية ، فى كل مشاعرها وأحاسيسها وتصرفاتها . ندخل إلى أعماق النفس ، وندرس حروبها الروحية ، وندرس علاقاتها مع الله ومع الناس ومع ذاتها . ومن كل ذلك نتعلم ...

والكتاب المقدس صريح جداً فى كشف النفس البشرية .

ونحن نريد أن نتناول هذه النفوس ، لكى نحللها ، ونفهمها ، ونرى فيها صورتنا نحن ، وما ينبغى أن نفعل . وفيما ندرس هذه الشخصيات ، ندرسها لكى نحيا نحن ...

نحيا من خلال حياة هؤلاء ، ونستفيد من تجاربهم ، ومن خبراتهم ، ونستفيد من سقوطهم أيضاً ومن قيامهم . وإن تعرضنا لأخطائهم ، فنحن لا ندينهم عليها . إنهم آباؤنا ومعلمونا ، بل هم أيضاً مُثلنا العليا . وهم أحباء الله الذين نرجوشفاعتهم وبركتهم ...

والأخطاء التى نكشفها ، إنما تكشف لنا ضعف طبيعتنا ، وليس ضعفاً لأولئك القديسين الذين لا نستحق أن نقبل التراب الذى داسوه بأقدامهم الطاهرة ...

بركة هؤلاء جميعاً ، فلتكن معنا ، آمين ...

- ١ -

آدم وحواء

أولا : بهاؤهما الأول
ثانيا : ٢٧ خطية وقعا فيها
ثالثا : نتائج هذه الخطايا وعقوباتها

آدم وحـــواء

يحسن بنا أن نبدأ تأملاتنا فى شخصيات الكتاب بابوينا الأولين ، آدم وحواء ، ونرى كيف خُلقا وكيف كانا ، وميزات طبيعتها الأولى فى عمق بهائها ومجدها ، وكيف قادهما الضعف البشرى ، وتطور بها من سقطة إلى أخرى ، حتى كثرت خطاياهما جداً ، وفسدت طبيعتها البشرية .

بهاؤهما الأول

١ - كانا مخلوقين ، غير مولودين ، لم يرثا فساداً من طبيعة سابقة :

آدم وحواء ، لم يولدا من دم ، ولا من مشيئة جسد ، ولا من مشيئة رجل ... لم يأتيا من زرع بشر ، ولم يرثا طبعاً فاسداً من طبيعة سابقة عليها ، إنما خلقها الله ، شيئاً جديداً لم يتلوث من قبل ، و بالطريقة التى أرادها الرب لهما .

٢ - خلقها الله على صورته ومثاله . ولا يمكن أن يوجد أعظم من هذا ، أن يكون آدم وحواء على شبه الله ...

وفى ذلك يسجل سفر التكوين « وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه . ذكراً وأنثى خلقهم » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

وما أكثر تأملات الآباء القديسين وتفسيراتهم ، الخاصة بخلق أبوينا الأولين على صورة الله ...

* قيل إن الله خلقها على صورته فى البر والقداسة ، فى وضع فائق للطبيعة ... وهكذا كان كلاهما باراً بلا خطية ، حينما خلقها الله متسربلين بالقداسة ...

* وقيل على صورته فى الجمال والبهاء والمجد ، أى أعطاهما قبساً من بهائه ، فكانا فى منتهى الجمال ، جسداً ونفساً وروحاً ...

* وقيل إن الله خلق الإنسان على صورته فى الخلود ، إذ وهب لهما نفساً خالدة ، نفخها فى أنف آدم ، نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية (تك ٢ : ٧) .

* وقيل إن الله خلقهما على صورته فى حرية الإرادة .

* وقيل أيضا إن الإنسان خُلق على صورة الله فى التثليث والتوحيد : ذاتاً ، لها عقل ناطق ، ولها روح . والذات والعقل والروح كائن واحد : كالذات الإلهية ، لها عقل ، ولها روح ، والثلاثة كائن واحد ... إنما الله غير محدود فى كل شيء ، والإنسان محدود ...

* وقيل إن الله خلقهما على صورته فى الملك والسلطة . فكانا ملكين على الأرض ، لهما سلطة على كائناتها (تك ١ : ٢٨) . وكان آدم نائباً لله على الأرض ، وممثلاً للخليقة الأرضية كلها ...

* وقيل إن الله كان يعرف مسبقاً بسقوط الإنسان ، وبأنه سيخلى ذاته و يتجسد لكى يخلصه . فخلق هذا الإنسان على الصورة التى كان الله مزمعاً أن يتجسد بها ، على شبهه ومثاله ...

٣ ـ وكان آدم وحواء يتصفان بالبساطة والبراءة :

ما كانا يعرفان الشر إطلاقاً . كانا يعرفان الخير فقط ، ولا شيء سوى الخير . لذلك لم يفكرا وقت التجربة أن الحية يمكن أن تخدع وأن تكذب . فعبارات الكذب والخداع لم تكن موجودة فى قاموسهما فى ذلك الحينَ .

وفى بساطتهما وبراءتهما ، ما كانا يعرفان بعضهما من الناحية الجنسية ، بل كطفلين ساذجين ـ ما كانا يفهمان الفروق العضوية فى تركيب جسديهما . وكما ذكر سفر التكوين « وكانا كلاهما عريانين ، آدم وإمرأته ، وهما لا يخجلان » (تك ٢ : ٢٥) .

٤ ـ وقد باركهما الله معاً ، بنفس البركة ، وأعطاهما سلطاناً على الأرض كلها بجميع كائناتها ، نفس السلطة لكليهما ...

وفى ذلك يذكر سفر التكوين « وقال الله نعمل الإنسان كصورتنا ، فيتسلطون على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى البهائم ، وعلى كل الأرض ، وعلى الدبابات التى تدب على الأرض » (تك ١ : ٢٨) .

وهكذا عاش الإثنان ، ولهما هيبة وسلطة ، على الأرض ومخلوقاتها . ما كانا يخافان الوحوش أو دبيب الأرض ، بل عاشا وسط الأسود والنمور والفهود والحيات والثعابين وما أشبه ، فى حياة من الألفة والسلام ، لهما سلطان على كل هؤلاء . ترى الوحوش فيهما صورة الله ، فتعاملهما بالمهابة اللائقة بهما .

وآدم هو الذى سمى كل الحيوانات وكل ذوات الأنفس بأسمائها « وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية ، فهو إسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء ، وجميع حيوانات البرية » (تك ٢ : ١٩ ، ٢٠) .

٥ - وكان آدم وحواء إجتماعيين ، يتعاونان معاً ...

حينما كان آدم وحده فى الجنة ، وجد التعاون والألفة بين جميع حيوانات الأرض « وأما لنفسه ، فلم يجد معيناً نظيره » (تك ٢ : ٢١) . وصعد هذا الإشتياق ، أو هذا الإحتياج إلى الله « فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام . فاخذا واحدة من أضلاعه ، وملأ مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التى آخذها من آدم إمرأة ، وأحضرها إلى آدم » (تك ٢ : ٢١ ، ٢٢) .

وشعر آدم بهذه الرابطة القوية التى تربطه بحواء ، وإنها جزء منه ، بينهما رابطة دم ولحم وعظم . « فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامى ، ولحم من لحمى . هذه تدعى إمرأة ، لأنها من إمرء أُخذت » (تك ٢ : ٢٣) .

٦ - ونحن نعجب من هذه المعرفة التى كان لآدم :

* كيف عرف أن حواء ، قد أخذت من لحمه ومن عظامه ، بينما كان فى سبات ... ؟! هل أخبره الله بما حدث ، فى ظل علاقة المحبة بينه وبين الله ؟ أم كان هذا اللون من المعرفة ، من ضمن مواهبه فى ذلك الوقت ، الذى خلق فيه بوضع فائق للطبيعة ...؟!
* كما أننا نعجب بآدم إذ أنه أعطى حواء إسماً له دلالة وله عمق ، فسماها إمرأة ، لأنها من إمرء أُخذت .

وفيما بعد ... بعد الخطية ، حينما ولدت إمرأته إبناً ، أعطاها إسماً آخر : « ودعا آدم إسم إمرأته حواء ، لأنها أم كل حى » (تك ٣ : ٢٠) . إنها حكمة إتصف بها آدم فى إطلاق الأسماء . ولعله إستخدم هذه الحكمة ذاتها فى تسمية الحيوانات والطيور وكل ذوات الأنفس الحية .

ليت أحد المتخصصين فى علوم اللغات ، يبحث مع بعض المتخصصين فى علوم الحيوان ، السر الذى يكمن وراء أسماء الحيوانات ، والحكمة التى بها أطلق آدم كل إسم على صاحبة ...

* كان آدم أيضاً يعمل فى الجنة ويحفظها (تك ٣ : ١٥) . فن أين أوتى آدم هذه

المعرفة بشئون كل النباتات الموجودة فى الجنة ، أتراه أيضاً لون من الكشف الإلهى ، أو كانت معرفة آدم من نوع فائق لمعرفتنا ؟!

٧ ـ وقد خُلق آدم وحواء بعد أن أعد الله لهما كل شىء .

خلقهما فى اليوم السادس ، كقمة لمخلوقاته كلها . وخلقهما بعد أن خلق من أجلهما كل شىء ، كما فى القداس الغريغورى . من أجلهما أعد السماء لهما سقفاً ، ومهد لهما الأرض كى يمشيا عليها . رتب لهما قوانين الفلك ، ووضع لهما الشمس لضياء النهار ، والقمر لإضاءة الليل . ونظم لهما الطبيعة واجواءها ، وخلق لهما النبات لطعامهما ، والحيوانات لخدمتهما . وأخيراً خلقهما ، ليتمتعا بهذه الطبيعة كلها .

وعندما تنتهى فترة إقامة البشرية على الأرض ، ويأتى الرب على السحاب ، ليأخذ باقى البشر ، ويسكن الإنسان فى الأبدية ، حينئذ ستزول هذه الأرض وهذه السماء اللتان خلقهما الله ، لراحة الإنسان ههنا . إذ سيزول غرضهما بإنتقال الإنسان إلى جوار الله فى أورشليم السمائية .

ما أعظم قيمة هذا الإنسان ، الذى من أجله خلق الله كل شىء . آدم صورة الله ، أعظم كائن على الأرض فى أيامه ، نائب الله ، المسلط منه على كل الخليقة الأرضية ...

٨ ـ وكان آدم وحواء سعيدين ، يعيشان فى جنة :

خلق الله جنة جميلة ، لكى يحيا فيها هذا الإنسان سعيداً « غرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً . ووضع هناك آدم الذى جبله » (تك ٢ : ٨) . ويشرح سفر التكوين بعض تفاصيل هذه الجنة ، فيقول « وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر . وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة » (تك ٢ : ٩ ، ١٠) .

كان آدم سعيداً هو وحواء داخل الجنة . لم يكن هناك ما ينقصهما ، ولم يكن هناك ما يعكر صفوهما . كان كل شىء حولهما جميلاً ، وعاشا فى اليوم السابع ، اليوم الذى قدسه الرب ، وإتخذه للراحة ، له ولهما .

وهذه الطبيعة الجميلة الهادئة النقية التى خلقها الله لآدم وحواء ، يقول عنها الكتاب « ورأى الله كل ما عمله ، فإذا هو حسن جداً » (تك ١ : ٣١) .

٩ ـ وعاش آدم أيضاً فى عشرة الله ...

لم تكن سعادة هذا الإنسان الأول ، **من مجرد خلقة فى طبيعة ممتازة ، أو من سلطته على** هذه الطبيعة ، أو من حياته فى جنة جميلة ، إنما لعل السبب الأول فى سعادته ، **أنه كان يحيا** فى عشرة الله ... الله كان يظهر له ، وكان يكلمه ، وكان يباركه ، **وكان يعلمه بنفسه** و يقدم له الوصايا النافعة له .

كانت له علاقة مباشرة مع الله ، يشرحها سفر التكوين « نفخ فى أنفه نسمة حياة » « وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن » وأحضر « الحيوانات » إلى آدم ليرى ماذا يدعوها » « وباركهم الله وقال لهم : « أثمروا وأكثروا وأملأوا الأرض » « وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها » .

١٠ ـ وقد عاش آدم وحواء فى الجنة نباتيين ...

*** إن أكل اللحوم لم يسمح به الله إلاّ فى أيام نوح ، بعد خروجه وأسرته من الفلك** ، إذ يذكر سفر التكوين إن الله بارك نوحا وبنيه بنفس بركة آدم وحواء ، تقريباً ، وقال لهم « كل دابة حية تكون لكم طعاماً . كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع ، غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه » (تك ٩ : ٣ ، ٤) .

أما ما قبل فلك نوح ، فلم يكن مصرحاً بغير النبات ... وهذا ما يذكره سفر التكوين :

* لما خلق الله آدم وحواء ، سمح لهما بأكل الفاكهة والبقول ، أى ثمار الأشجار ، وذلك بقوله « إنى قد أعطيتكم كل بقل يبذر بذراً على وجه كل الأرض ، وكل شجر فيه ثمر شجر يبذر بذراً ، لكم يكون طعاماً » . « ولكل حيوان الأرض ، وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية ، أعطيت كل عشب أخضر طعاماً ، وكان كذلك » . (تك ١ : ٢٩ ، ٣٠) .

*** إذن لم يكن الإنسان وحده نباتياً فى الجنة ، وإنما حتى الحيوانات أيضاً بكل أنواعها كانت نباتية :** للإنسان الثمار والبقول ، وللحيوان العشب الأخضر . لم يكن هناك إفتراس . لا الإنسان يأكل الحيوان ، ولا الحيوان يأكل الإنسان ، ولا الحيوان يأكل بعضه بعضاً .

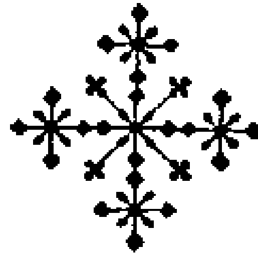
* وبعد السقوط في الخطية : لما حدث أن الإنسان ، كالحيوان إشتهى أن يأكل ، أعطاه الله الطعام المخصص للحيوان ، عشب الأرض . فقال الرب للإنسان بعد السقوط « وتأكل عشب الأرض » (تك٣ : ١٨) ، وكان العشب مخصصاً للحيوان من قبل (تك١ : ٣٠) .

بقي الإنسان بعد السقوط نباتياً ، يأكل ثمار الشجر والبقول والعشب ، بعد طرده من الجنة ، دون أن يأكل اللحوم ، التي لم يصرح له بعدها ، إلاَّ بعد فلك نوح (تك٩ : ٣) .

* ومع ذلك كانت الأعمار طويلة جداً ، في تلك الفترة من آدم حتى نوح ، كما يشرح الأصحاح الخامس من سفر التكوين :
عاش آدم ٩٣٠ سنة (تك ٥ : ٥) ، وعاش نوح ٩٥٠ سنة (تك٩ : ٢٩) . وعاش متوشالح ٩٦٩ سنة (تك٥ : ٢٧) ، وهو صاحب أطول عمر في كل أجيال البشرية ، وكان نباتياً .

* لماذا إذن صرح الله بأكل اللحوم بعد فلك نوح ؟

يقول الكتاب « قبل الطوفان مباشرة » « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض » (تك٦ : ٥، ٦) . وهكذا أغرق الرب العالم بالطوفان . وأبقى الرب بقية من البشرية . وسمح لها بأكل اللحوم ، لأن مستوى البشر لم يكن يحتمل غير هذا ...



خطايا عديدة لأبوينا الأولين

كانت طبيعتها سامية جداً ، ولكنها كانا يتمتعان فى نفس الوقت بحرية الإرادة ، وبالحرية توجد إمكانية السقوط .

والعجيب أن كثيراً من الكتاب يتحدثون عن خطية آدم أو حواء ، كما لو كانت خطية واحدة لا غير !! بينما وقع أبوانا فى عديد من الخطايا ، نذكر منها هنا ٢٧ خطية ، بنوع من التحليل ، لكى نتعلم نحن أيضاً التدقيق فى محاسبتنا لأنفسنا ... فما هى هذه الخطايا ؟

١ - العصيان أو المخالفة

وهذه هى الخطية الواضحة للكل . إن الله أمر أبانا آدم قائلاً : « من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً . وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٦ ، ١٧) . الوصية واضحة ، وقد سمعها آدم بنفسه من فم الله . وكانت تحفظها حواء (تك ٣ : ٢) . ومع ذلك خالفها آدم وخالفتها حواء .

لو لم ينذر الله آدم وحواء من قبل ، لقلنا إنها كانت خطية جهل . ولكن من الواضح أنها خطية معرفة .

٢ - المعاشرات الرديئة

بدأت سلسلة الخطايا التى وقع فيها آدم وحواء بخطية « المعاشرات الرديئة التى تفسد الأخلاق الجيدة » (١ كو ١٥ : ٣٣) . فجلست أمنا حواء مع الحية « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله » (تك ٣ : ١) .

وحتى إن كانت أمنا حواء ، بنقاوة قلبها وبساطتها ، لا تدرك ما فى الحية من خبث ، فإنه كان يجب عليها أن تتنبه ، حينما أخذت الحية تكشف أوراقها ، وتقول كلاماً عكس ما قاله الله نفسه لها !!

ولكن أمنا القديسة بدلاً من أن تتنبه ، وقعت فى خطية الإنقياد ، ووقعت أيضاً فى خطية الشك . وقادتها هاتان الخطيتان إلى سقطات أخرى كثيرة .

٣ـ خطية الشك

قالت الحية في خبث وهي تبذر بذور الشك « أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟! » ... أحقاً أن الله الرحيم الطيب يمنعكما عن الأكل من كل الشجر؟ وماذا يضيره لوجعلكما تأكلان؟ أي شرفي هذا؟!

فلما أجابت المرأة حسناً ، أخذت الحية تتعمق في إلقاء بذور الشك ، فقالت « كلا ، لن تموتا ، بل الله عالم إنكما يوم تأكلان تتفتح أعينكما ، وتكونان مثل الله عارفين الخير والشر» ... إذن الله خائف من أن تصيرا مثله ، لذلك يمنعكما ... ليس حباً منه لكما ، أو حرصاً عليكما ، إنما خشية من المنافسة ...

هذا هو الشك الذي ألقته الحية في نفس حواء :

الشك في صدق كلام الله ، والشك في حب الله للبشر ، بل الشك أيضاً في إنذار الله لها بالموت . فها ـ حسب كلام الحية ـ لن يموتا ، بل ستتحسن أحوالها ...

واستسلمت حواء إلى هذا الشك ، فسلمها إلى خطيئة أخرى :

٤ـ خطية الانقياد

إنقادت ـ وهي صورة الله ومثاله ـ إلى الحية ومشورتها . فبدلاً من أن تنتهر الحية على التشكيك في كلام الله ، أطاعتها ، وبهذا فقدت شخصيتها أمام الحية ، بينما كان الله قد أعطاها سلطاناً على جميع حيوانات الأرض وعلى ما يدب على الأرض ، فكانت الحية بذلك تحت سلطانها ، وكانت تملك أن تخضعها ، حسب قول الرب عن هذه الكائنات « وأخضعوها » (تك ١ : ٢٨) . فبدلاً من إخضاعها . خضعت لها .

ونفس هذا الإنقياد الخاطىء ، الذي وقعت فيها حواء ، حدث بالنسبة إلى أبينا آدم من جهة إمرأته حواء ، بينا الرجل رأس المرأة . وكان يجب على آدم أن يقود حواء إلى الخير، و يرفض أن يأكل الثمرة المحرمة من يدها ، ولكنه إنقاد هو أيضاً وأطاع . ووقع في نفس ضعف الشخصية الذي وقعت فيه حواء .

لذلك فإن الله لم يقبل من حواء عبارة « الحية أغرتني » . ولم يقبل من آدم عبارة « المرأة أعطتني » .

كان يجب على كل منها أن يكون قوى الشخصية ، ولا يقبل من غيره أية نصيحة أو أى توجيه ضد وصية الله الواضحة .

وكان إنقياد حواء للحية ، يحمل داخله خطية أخرى هي :

٥ـ ضعف الايمان

إنقياد حواء للحية ، معناه أنها قبلت كلامها أكثر من كلام الله ، أو قل إنها صدقت الحية وكذبت الله . الله يقول عن ثمر الشجرة « لا تأكلا منه ولا تمساه ، لئلا تموتا » (تك ٣ : ٣) . والحية تقول « كلا ، لن تموتا » . والمرأة تقبل كلام الحية ، وتميل إليه بقلبها ، وتترك كلام الله ، لا تخشاه ، ولا يتعبها إنذاره ...

إذن فهذا ضعف إيمان بالله وبكلمته وبإنذاره . بل هو عدم إيمان بصدق الله ...

وضعف الإيمان هذا ، قادها إلى خطية أخرى وهي :

٦ـ الاستهانة وعدم مخافة الرب

بدأت تستهين بحكم الله وبتهديده وعقوبته ، ولم تخف إطلاقاً من أن تمد يدها وتأخذ ، كما لو كانت عبارة « موتاً تموتا » ، لا تهز لها جفناً ، ولا تحرك ضميرها أو قلبها ... !

على أن إغراء الحية وحديثها ، قاد المرأة إلى خطية أخرى ، دنست قلبها الطاهر ، وهي خطاية الشهوة .

٧ـ خطية الشهوة

نظرت المرأة إلى الشجرة ، فإذا هي « جيدة للأكل ، وبهجة للعيون ، وإذا الشجرة شهية للنظر » ... فإشتهتها ...

كانت شجرة معرفة الخير والشر في وسط الجنة ، وربما كانت حواء تمر عليها كل يوم وتراها . وكانت نظرتها إليها بسيطة ، لا تحمل شهوة ...

أما الآن فإن النظرة قد تغيرت ، لم تعد بسيطة كما كانت أمس وقبلاً من أمس ، ذلك لأن القلب قد تغير...

القلب قد دخلته شهوة ، فأصبحت نظرته إلى الشجرة مشبعة بالشهوة . و بالشهوة صارت الشجرة شيئاً آخر مشتهى ، بل شيئاً مفضلاً على الكل ، حتى على وصية الله . صارت الشجرة « جيدة للأكل ، وبهجة للعيون ، وشهية للنظر » ...

لماذا ؟ لأن خطية أخرى قد دخلت القلب ... فما هي ؟

٨ ـ خطية الكبرياء

« يوم تأكلان منها تتفتح أعينكما وتصيران مثل الله ... » . هنا الإغراء الجبار « تصيران مثل الله » أو تصيران إلهين ... !! إن كان الأمر هكذا ، فلماذا نرضى ونكتفي بالمستوى البشرى ؟! ولماذا نأخذ من الله موقف الطاعة ، بدلاً من موقف المساواة ؟! وعصفت شهوة الألوهية بهذه الإنسانة المسكينة فدخلتها الكبر ياء .

وأستطاعت هذه الكبر ياء أن تحطمها ، كما حطمت الشيطان من قبل **لأنه أراد أن يقع الإنسان في نفس السقطة التي وقع فيها ...** وماذا كانت سقطته ؟ يحكيها سفر أشعياء النبي فيقول :

« كيف قطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم ؟ وأنت قلت في قلبك : أصعد إلى السموات ، أرفع كرسي فوق كواكب الله ... أصعد فوق مرتفعات السحاب ، أصير مثل العلي . لكنك إنحدرت إلى الهاو ية ، إلى أسافل الجب » (أش ١٤ : ١٢-١٥) .

إن عبارة « أصير مثل العلي » التي قالها في قلبه ، هي نفس عبارة « تصيران مثل الله » التي أغرى بها حواء ...

إن الكبر ياء هي التي أسقطت الشيطان ، وهي التي أسقطت الإنسان الأول . وكما قال أحد القديسين : إن حواء إشتهت مجد الألوهية ، ففقدت ما كان لها من مجد البشر ية .

على أن هذه السقطة ، وهذه الكبر ياء ، كانت تحمل في داخلها شهوة أخرى ، أو خطية أخرى ، وهي ...

٩- المعرفة المخربة

« تصيران مثل الله ، عارفين الخير والشر » « تنفتح أعينكما » ... لقد قدم الشيطان للإنسان هذا الإغراء ، إغراء المعرفة ... إلى متى تظل مقفل العينين لا تعرف ؟ ليتك تأكل لكى تنفتح عيناك المغمضتان ، وتذوق الدنيا وتعرفها ...

إلى متى يغلق الله عليكما فى هذه البساطة أو السذاجة ، التى يسمونها النقاوة أو البراءة !! فتظلان هكذا لا تدر يان ولا تفهمان الجمال الموجود فى الدنيا ، واللذة الموجودة فى الثمرة ؟! لماذا يحرمكما الله من هذه المعرفة ؟!

أية معرفة يقصدها الشيطان ؟ لقد وهبها الله فضل معرفته ، وجعلها يعرفان الخير والبر و يذوقان ما فى هذه المعرفة من لذة . يجيب الشيطان إنها حرما من معرفة الخير والشر .

وهنا تبدو الخدعة الكبرى التى إنطلق على حواء ... فما هى ؟

إنها يعرفان الخير فقط . والشيطان ير يد لها الآن « معرفة الخير والشر » ، أى أن تضاف إلى معرفتها النقية ، معرفة الشر... !

يا للخدعة الخبيثة ، التى قال عنها الحكيم « الذى يزداد علماً ، يزداد غماً » (جا ١ : ١٨) ، يقصد المعارف التى تشوه نقاوة الإنسان ، أو تر بك سلامة فكره ...

وأكل الإنسان من شجرة المعرفة ، فصار جاهلاً ... لأنه أخذ معرفة الشر إلى جوار معرفة الخير ، وماذا أصابه أيضاً ؟

١٠- مشكلة الثنائية وفقدان الثقة

ومن ذلك اليوم ، والإنسان يعيش معذباً ، يسبح فى بحر العالم ، يحيطه شاطئان :

وللأسف ، فإن معرفة الشر عند كثير ين ، أرتبطت بشهوة الشر ، أو على الأقل أرتبطت بالصراع بين الخير والشر . وعاش الإنسان حياته فى هذا الصراع ، وتشوهت أفكاره بمعرفة الشر ، وجلبت له هذه المعرفة الظنون والأفكار ، و وضعت فى عقله الواعى أو عقله الباطن صوراً متعبة ، تظهر أحياناً كأحلام ، وأحياناً كشكوك وظنون ، وأحياناً كإدانة للآخر ين ، أو كإشمئزاز من وضع معين ، أو كخوف من سقوط ... أو أرتياب فى نقاوة .

ولما أكلت حواء من شجرة المعرفة هذه ، بدأت ترى آدم رجلاً يختلف عن أنوثتها . وبدأ آدم يراها أنثى تختلف عن رجولته . وبدأ الجنس يفتح أبوابه .

وكان أول باب هو الخجل . وأحس آدم وحواء أنهما عريانان ، وفكرا كيف يستران عريهما ... وفقد الإثنان بساطتهما الأولى ...

ما كان أغناهما عن هذا كله ، لو أنهما لم يطلبا هذه المعرفة ، أو على الأقل طلبا المعرفة من الله وحده . ولكنهما وقعا فى خطية أخرى وهى :

١١ - طلب المعرفة من غير الله

كان الله هو المعلم الأول والوحيد للإنسان ، يعطيه من المعرفة ما يفيده وما يبقى على نقاوته .

ثم بدأ الإنسان يتخذ له مرشداً غير الله ، يشير عليه بما يفعل ، ويعطيه معرفة أخرى . وكان هذا المرشد للأسف ، هو الشيطان الذى دخل الحية ، وأرشد الإنسان إلى ما فيه هلاكه ...

وشهوة المعرفة ، بعيدة عن الله ، ومن غير الله ، ملأت الإنسان بمعارف ضيعته . ومازال الإنسان يسعى إلى المعرفة منذ أكل من الشجرة . وفى كل يوم تنفتح عيناه بالأكثر... وتجمع له الحواس أحياناً ما يضره ...

ويستمر فى ثنائية المعرفة ، التى تشمل الخير والشر ، إلى أن يهب له الله فى الأبدية إكليل البر ، فيتقيأ ما أكله من معرفة الخير والشر ، ويعود لا يعرف غير الخير وحده ، وينسى فى النعيم الأبدى ما كان قد عرفه فى العالم من شر . يمحو الله من ذاكرته ومن علمه ومعرفته كل معرفة الشر فى الإنسان الجديد الذى يقوم من الأموات فى نقاوة لا تعرف شراً .

ويصير الجميع متعلمين من الله (يو٦ : ٤٥) . ولا يعود الشيطان يعلم ويرشد يلقى أفكاره فى عقول الناس ... بل فى الأبدية سنأخذ معرفة بديلة ، هى معرفة الله الذى يكشف لنا ذاته . وكما قال ربنا يسوع المسيح لله الآب « هذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » (يو١٧ : ٣) .

حينئذ يكون الله هو مصدر معرفتنا ، وقمة معرفتنا ، وتبطل مشورة الشيطان الذى أسقط أمنا حواء فى القديم ، فأكلت ...

١٢ـ حفظ الوصية عقلاً لا عملاً

كانت حواء تحفظ الوصية حفظاً عقلياً ! لذلك عندما سألتها الحية « أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ » ، صححت لها حواء منطوق الآية، وذكرت تفاصيلها ، فقالت للحية « من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة ، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا » . إنه حفظ دقيق لم يكتف بالمنع عن الأكل ، بل عن اللمس أيضاً ...

والعجيب أنها فى نفس الوقت الذى ذكرت فيه الوصية بهذه الدقة العجيبة ، عادت وكسرت الوصية ، ومدت يدها وقطفت وأكلت ... ! لقد حفظت الوصية عقلاً لا عملاً ...

إنها تذكرنى بالشاب الغنى الذى كان يحفظ الوصايا ، وقال عنها للسيد الرب « هذه حفظتها منذ حداثتى » . وفى نفس المناسبة مضى حزيناً ، لأنه كان يعبد إلهاً آخر هو المال ، بينما تقول الوصية الأولى « لا تكن لك آلهة أخرى أمامى » (خر ٢٠ : ٣) .

وفى الأكل من الشجرة ، وقعت حواء ، كما وقع آدم أيضاً فى خطية أخرى وهى :

١٣ـ الإنحدار الى المستوى الجسدانى

الأكل ، وشهوة الأكل ، والنظر إلى الشجرة على أنها « جيدة للأكل » ... كلها أمور جسدانية إنحدر إليها آدم وحواء ، بأسباب نفسانية ، سقطا بها عن المستوى الروحى .

ولذلك أعتبر البعض أن الوصية الأولى التى أعطيت للإنسان ، كانت وصية صوم ، تشبه صومنا فى هذه الأيام ، نأكل من الكل ماعدا نوع واحد وهو الأطعمة الحيوانية . كذلك أعطى لآدم وحواء أن يأكلا من الكل ماعدا نوع واحد هو ثمر هذه الشجرة .

ولكن آدم وحواء كسرا هذا الصوم ، وأكلا من هذا الصنف المحرم . و بالأكل سقطا من المستوى الروحى إلى المستوى الجسدى .

وبهذا السقوط ، إستمرت معها حروب الجسد فيا بعد . حتى أن بعض العقوبات التى فرضها الله عليها ، كانت تحمل إشارة إلى هذا المستوى الجسدانى الذى هبطا إليه :

قال للمرأة « تكثيرا أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولاداً » .

وقال لآدم « لأنك سمعت لقول إمرأتك ، وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ... بعرق جبينك تأكل خبزاً ... وتأكل عشب الأرض » (تك٣: ١٦-١٩) .

هذه عقوبة الأكل . على أنه فى الأكل من الشجرة كانت توجد خطية أخرى :

١٤- عدم القناعة

الله أعطى أبوينا الأولين أن يأكلا من كل شجر الجنة ، ماعدا واحدة . ولا شك أنه كانت توجد أثمار كثيرة جداً فى الجنة ، بل كان فيها كل نوع ثمر... ولكن هذا كله لم يقتنع به آدم وحواء ولم يكفيها ، بل أرادا الأكل من هذا النوع الواحد الناقص . وهذا يدل على عدم القناعة .

ومازال مرض عدم القناعة موروثاً حتى الآن « العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلىء من السمع » « وكل الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن » (جا ١: ٨، ٧) .

على أن حواء فى أكلها من الثمرة المحرمة ، لم تقع فقط فى كل هذه الخطايا ، إنما أضافت إليها خطية أخرى وهى :

١٥- إعثار الآخرين

لم يقتصر أمرها على كسر الوصية والأكل من الشجرة ، وإنما يقول الكتاب إنها « أكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل »

الخطأ ، وقادته إلى كسر الوصية ، وكانت سبباً فى ضياعه ، ووضعت أول بذرة للعثرة ، ولإعثار الأخرين...

والعجيب أن البعض يظنون أن خطية آدم وحواء هي مجرد الأكل من الشجرة ! فعلى الرغم من كل الخطايا التي ذكرناها ، توجد خطايا أخرى كثيرة أرتكبها أبوانا بعد الأكل من الشجرة .

فما هي هذه الخطايا ؟

١٦- تغطية الخطية بأوراق التين

لما أكلا « إنفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان » ، إذ فقدا نقاوتهما ، وفقدا بساطتهما الأولى . فبدلا من معالجة الخطية والتخلص منها ، والرجوع إلى النقاوة الأولى ، قاما بتغطية الخطية بأوراق التين . وهكذا تغطى آدم وحواء ، ولكن بقي القلب من الداخل غير سليم ، والشعور كما هو...

وأصبحت أوراق التين ترمز إلى تغطية الخطية ، دون التخلص منها .

ولهذا نرى أن الرب لم يوافق على فكرة أوراق التين . « صنع الرب الإله لآدم وإمرأته أقمصة من جلد وألبسهما » (تك٣ : ٢٠) .

ومن أين أتت أقمصة الجلد ؟ لعلها أتت من ذبيحة ، سُفك دمها لأجلهما ، وتغطيا بجلدها . وهنا بدأ الرمز العميق :

الخطية تعرى الإنسان وتخجله ، والذبيحة تغطيه وتستره ، بل وتطهره ...

إنه معنى ربما يكونان قد عرفاه بسيطاً في باديء الأمر ، وأتى التعمق فيه على مر الزمن فيما بعد .

بعد الخطية ، شعر آدم وحواء بالعرى ، وبالخزى ، فإستترا بأوراق التين ... وماذا بعد ؟ لقد وقعا في خطية أخرى كبيرة وهي :

١٧- الهروب من الله

« سمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة ،عند هبوب ريح النهار ، فإختباء آدم وإمرأته من وجه الله في وسط شجر الجنة » (تك٣ : ٨) .

أصبح هناك تباعد بينهما و بين الله ... وجدت هوة فاصلة ... لم يعودا يفرحان بالوجود فى حضرة الرب . فحالما سمعا صوته مقبلاً ، هربا من وجهه وأختفيا ...

وصار الهروب من الله خطية موروثة فى نسل آدم وحواء . فما أن يقع الإنسان فى الخطية ، حتى يبدأ فى سلسلة من الهروب : يهرب من الصلاة ، لأنه يخجل من الكلام مع الله وهو فى الخطية ! ويهرب من الكنيسة ، ومن أب الاعتراف ، ومن الإجتماعات الروحية ، ومن الأصدقاء الروحيين ، إلى أن يقطع كل صلة له بالله ... !

ولعل الهروب من الله ، بالنسبة إلى آدم وحواء ، قد دفعت إليه خطية أخرى وهى الخوف .

١٨ - الخــوف

والخوف إن لم يكن خطية فى حد ذاته ، فعلى الأقل هو إنحدار فى المستوى ، إنحدار من مستوى الحب الإلهى الذى كانا يعيشان فيه . و يقول القديس يوحنا الرسول « لا خوف فى المحبة ، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج . لأن الخوف له عذاب . وأما من خاف ، فلم يتكمل فى المحبة » (١يو٤ : ١٨) .

وواضح من إجابة أبينا آدم أنه خائف . ولا نقصد المخافة التى تحمل مهابة الله ، وإنما الخوف بمعناه الحرفى ، الذى يدعو إلى الهرب والإختفاء . وفى هذا يقول للرب « سمعت صوتك فى الجنة فخشيت ، لأنى عريان فإختبأت » (تك٣ : ١٠) .

وبالنسبة إلى آدم وحواء ، لا نقول فقط إنهما نزلا من مستوى الحب ، بل عملا أعمالاً ضد محبة الله .

١٩ - الخروج من محبة الله

* لا شك أن كسر الوصية كان عملاً ضد محبة الله . لأن الرب يقول « الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى » (يو١٤ : ٢١) . و يقول القديس يوحنا الحبيب « من قال قد عرفته ، وهو لا يحفظ وصاياه ، فهو كاذب وليس الحق فيه . وأما من حفظ كلمته ، فحقاً فى هذا قد تكملت محبة الله » (١يو٣ : ٤) . إذن كسر الوصية ضد المحبة .

* ورغبة آدم وحواء فى أن يصيرا « مثل الله » حسب إغراء الحية ، كان عملاً آخر ضد محبتهما لله .

* وتصديق كلام الحية ، عكس كلام الله ، كان أيضاً عملاً ضد محبة أبوينا الأولين لله .

* وفى مناقشتهما مع الله ، كانت الطريقة لا تتفق والمحبة .

* وهروبهما من وجه الله ، وإختفاؤهما ، كان عملاً رابعاً منهما ضد محبة الله .

كذلك فى خوف أبوينا وأختبائهما ، وقعا فى خطية أخرى ، وهى عدم السعى للصلح مع الله .

٢٠ ـ عدم السعى الى الخلاص

إنهما إنسانان قد كسرا وصية الله ، وأصبح محكوماً عليهما بالموت . فماذا فعلا للتخلص من حكم الموت هذا ؟ هل سعيا إلى الخلاص ؟ هل بذلا جهدهما لكى يصطلحا مع الله و ولكى يعودا إلى علاقة الحب الأولى ؟ كلا .

لقد شل الخوف تفكيرهما ، فلم يقوما بأى عمل من أجل خلاص نفسيهما الهالكتين ، إنما أسرعا بالإختفاء من وجه الله .

وفى الإختفاء من وجه الله فى وسط الشجرة وقعا فى خطية أخرى وهى الجهل بالله وقدرته ...

٢١ ـ الجهل بالله وقدرته

إلى أين يهرب هذان المسكينان من وجه الرب ؟ وأين يختفيان ؟ لقد كان حفيدهما داود أكثر معرفة بالله حينما قال :

« أين أذهب من وجهك ؟ ومن وجهك أين أهرب ؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فها أنت ... » (مز ١٣٩ : ٧ ، ٨) ... فما معنى الإختباء وسط الشجر إذن ؟!

هل الشجر يخفيهما عن عين الله الفاحصة الخفيات والظاهرات ؟ أم أنهما جهلا قدرة الله

على كل شيء ...

حقاً إن الإنسان لما أكل من شجرة المعرفة صار جاهلاً ، لقد وعده الشيطان وعداً زائفاً لم يبر به ...

وفى المناقشة بين الله وأبوينا الأولين ، نرى فى أجابتهما عدداً كبيراً من الأخطاء ، منها :

٢٢- عدم إدانة النفس

إن كان هذا الإنسان قد أكل من شجرة المعرفة ، وعرف الخير والشر ، فعلى الأقل أصبح يعرف أنه قد أخطأ .

ولكن كلمة « أخطأت » لم يقلها آدم إطلاقاً ، ولم تقلها حواء .

لم يعترف أحد منهما بهذه الخطايا التى ذكرناها ، ولا بشيء منها . لم يقم أحد منهما بإدانة نفسه ، ولم تكن لأى منهما حكمة القديس مقار يوس الكبير الذى قال : [أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك] ...

و ياليتهما لم يدينا نفسيهما وصمتا ، بل أنهما وقعا فى خطية أصعب ، وهى محاولة تبر ير النفس ...

٢٣- محاولة تبرير النفس

كل منهما حاول أن يبرر نفسه . حاول أن يوجد لنفسه عذراً أو أعذاراً يغطى به خطيته ، أو يقلل من الجرم الذى وقع فيه . ولم يقبل الله شيئاً من تبر يراتهما وأعذارهما ، لأن الخطية واضحة .

أمام الله يستد كل فم . وإن تكلم الإنسان ، فإنما ليعترف و يدين نفسه و يطلب الرحمة ، وليس غير. أما محاولة تبر ير النفس ، فهى نوع من المكابرة والكبر ياء .

وفى تبر ير كل من آدم وحواء لنفسه ، وقع فى خطية أخرى وهى إلقاء التبعة على الآخر ين .

٢٤- إلقاء التبعة على الآخرين

حواء ، تلقى التبعة على الحية فتقول « الحية غرتنى فأكلت » . وآدم يلقى التبعة على حواء « المرأة أعطتنى فأكلت » ...

ولا يلقى أحد منهما بالتبعة على نفسه ...

ولم يكن إلقاء التبعة على الآخرين عذراء مقبولاً : فآدم كان يستطيع أن يرفض الأكل ، ولا يسمع لحواء ، بل كان يستطيع أن يوبخها ، بل أكثر من هذا كان يمكنه أن ينصحها ويمنعها قبل الوقوع فى الخطيه .

أما أن تقدم له من الثمرة فيأكل دون تفكير، دون إمتناع ، ودون تذكر للوصية دون تذكر للعقوبة ، فهذا أمر لا يقبله أحد .

وحواء بالمثل ، كانت تستطيع أن ترفض إغراء الحية ...

وحينما القى آدم بالتبعة على حواء ، إنما وقع ضمناً فى خطية أخرى ، تخدش المحبة التى بينهما .

٢٥- ضد محبة القريب

كما كسر آدم محبته لله ، كسر أيضاً محبته للقريب . والقريب الوحيد هنا كان حواء . إتهمها أمام الله ، وحملها تبعة سقوطه فى الخطية .

وهكذا القى أول بذرة للخلافات الزوجية . ونشكر الله أن حواء لم ترد على آدم ، ولم تدخل معه فى مناقشة ، بل لزمت الصمت ، ومرت المشكلة من جهتها بسلام .

على أن إتهام آدم لحواء ، كان يحمل خطية أخرى :

٢٦- الاختفاء وراء امـرأة

ما كان يليق بأبينا آدم - الرجل الأول فى البشرية أن يختفى وراء إمرأة لكى ينجو! يقدمها للإتهام ، ويحملها المسئولية ، لكى يتبرر هو!

الأمر المثالى ، أن يتحمل أخطاءها ، و ينسبها لنفسه ، كمسئول ، و ينجيها من

العقوبة ، و يتصدر الموقف و يتركها تختفى وراءه . يحمل خطاياها ، كما حمل المسيح خطايا عروسه الكنيسة ... لكن آدم فعل العكس .

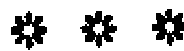
لا أريد أن أعلق على الموقف بأكثر من هذا ...

٢٧- عدم اللياقة فى الحديث

وفى دفاع آدم عن نفسه بالقاء التبعة على المرأة ، فقد اللياقة اللازمة فى التحدث مع الله نفسه ... !

فلم يكتف بقولة « المرأة أعطتنى فأكلت » وإنما قال لله : « المرأة التى جعلتها معى ، هى أعطتنى » .

وكأنه بهذا يشرك الله فى المسئولية ، أو يجعل الله صاحب السبب فى سقوطه ، لأنه أعطاه المرأة التى أعطته الثمرة ... ! وكان تعبيراً غير لائق من جهة آداب الحديث مع الله . ولم يرد الله عليه ...



من هذه السقطات التى وقع فيها أبوانا الأولان نستنتج :

* أن الخطايا لسيت عواقر ، وإنها تلد خطايا أخرى ... و يكفى أن يجر الإنسان أول الخيط ، لكى ينساب كله ، ويجد أن خطية تقوده إلى أخرى ...إلى غير إنتهاء ...

*** كذلك نستنتج أنه يلزمنا التدقيق فى محاسبتنا لأنفسنا وفى إعترافاتنا ...**

فربما نظن أننا إقترفنا شيئاً بسيطاً ، بينما هذا الشيء يحوى العديد من الخطايا ، التى ربما تُخفى عن معرفتنا ، ولكننا بقليل من التحليل ندركها ...

وها قد رأينا كيف سقط أبوانا آدم وحواء ، وكيف بدأ الفساد ينخر فى الطبيعة البشرية على مدى العصور ، حتى أتلفها تماماً .

بقى أن نتأمل نتائج السقطة الأولى للبشرية :

نتائج هذه الخطايا وعقوباتها

١ـ اللعنــة

*** اللعنة لم تصب آدم وحواء لسببين :**

أولاً : لأن الله كـان قـد بـاركـهما قبلاً (تك ١ : ٨) وهبات الله بلا ندامه (رو١١ : ٩) ، ولا يـرجع فيها مهما حدث . إنها لا تتوقف على أمانتنا ، بقدر ما تتوقف على جوده هو وكرمه ...

ثـانـياً : لأنـه لـو لـعـن آدم وحـواء ، لـكانت اللعنة قد أصابت الجنس البشرى كله ، الموجود فى صلبهما ، كما لعن فيما بعد كنعان فلعن كل نسله ، وكذلك قايين وكل نسله .

ولا يمـكـن أن يـلـعـن الجـنـس الـبشرى كله ، ومنه سيأتى أنبياء وأبرار يباركهم الرب و يـكـونـون بـركـة ... بل من نسل آدم سيأتى السيد المسيح ـ حسب الجسد ـ الذى سيسحق رأس الحية ، و به « تتبارك فيه جميع قبائل الأرض » (تك ٢٢ : ١٨) .

*** ولـكـن الـلعـنـة أصابت الحية التى أغرت حواء بأكل الثمرة . كذلك أصابت اللعنة الأرض التى تخرج ثمراً للأكل :**

١ ـ فـقـال الله لـلحـيـة « مـلعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البر ية . على بـطـنـك تـسـعين ، وتـراباً تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك و بين المرأة ، و بين نسلك ونسلها . وهويسحق رأسك ،

ونلاحظ أن لعنة الحية ، كانت تحمل عقوبة ضمنية للإنسان .

أصـبـحـت هـنـاك عداوة بينه و بين الحية ، ولم توجد من قبل أية عداوة بينه و بين أحد مـن الخـلـيقة كلها . كما أن سلطانه على الحيوان قد إهتز ، فصارت الحية تستطيع أن تسحق عـقـبه ، وتؤذيه ! وهو الذى كان ملكاً مسلطاً على كل أنواع الخليقة . وهكذا ضاع جزء من هيبته ومن سلطته ...

على أن سـلـطـان الحـيـة قـد إهتز عندما أعطانا السيد المسيح سلطاناً أن ندوس الحيات والـعـقـارب وكـل قـوة الـعـدو . وإنتهـى حينما سحق المسيح رأس الحية ... وعبارة « وتراباً

تـأكـلين كـل أيـام حياتك » ، فيها تعريض بالإنسان الذي قال له الرب في نفس المناسبة « أنت تراب وإلى التراب تعود » (تك ٤ : ١٩) .

الإنـسان البار ، هو صورة الله ومثاله . أما الإنسان الخاطىء فهو تراب . وكتراب يصير طعـاماً للحية ، لأنها تأكل تراباً كل أيام حياتها ... هذا هو المعنى الرمزى كما تأمله القديس أوغسطينوس ...

وفى داخـل هـذه العقوبة التى أوقعها الله على الحية ، وضمناً على الإنسان ، كان يوجد الوعد بالخلاص ...

وعد بـأن نـسـل المرأة سيسحق رأس الحية . وهذه كانت أول نبوءة عن مجىء السيد المسيح لخلاصنا .

و يُظهر لنا هذا الوعد حنو الله على الخطاة ، و يزيده عمقاً أنه وعد بالخلاص ، وعد به الله فيما هو يعـاقـب و يـقـتـص من الخطية . حقاً إن عدله مملوء رحمة ، وأنه رحيم فى عدله ، وصفاته لا تنفصل عن بعضها البعض ...

إن الله لم يـلـعـن الإنـسان ، ولكنه لعن الحية التى أغوت الإنسان ، وكانت فى لعنتها ، عقوبة ضمنية للإنسان . كذلك لعن الله الأرض التى يعيش عليها الإنسان .

*** وفى اللعنة التى أصابت الأرض ، كانت توجد أيضاً عقوبة ضمنية موقعة على الإنسان نفسه :**

كـانـت لـعنة الأرض ضمن العقوبة التى أوقعها الله على الإنسان ، إذ قال له « ملعونة الأرض بـسـبـبـك . بـالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ... » (تك ٣ : ١٧ - ١٩) .

بهذه اللعـنـة بدأت الأرض تتمرد على الإنسان ، كما أصبحت الحيوانات تتمرد عليه ، ممثلة فى الحية ، وهكذا فقد الإنسان هيبته ، فيما كانت تعده الحية بالإلوهية !!

أول تـمـرد للأرض ، يكمن فى عبارة « بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك » . الأرض المـبـاركـة ، لا يتعب فيها الإنسان . أما الأرض الملعونة فتتعبه . كان آدم قبل الخطية يعمل فى الجـنـة ، ولـكـنه كان عملاً مريحاً ، ولم يذكر الكتاب مطلقاً إنه كان يتعب فى عمله ، أو أنه كان يتعب ليحصل من الأرض على أكله ...

هذه اللعنة نجدها واضحة فى قول الرب لقايين ، أول إنسان لعنه الله « متى عملت الأرض ، لا تعود تعطيك قوتها » (تك ٤ : ١٢) .

وتمرد الأرض يظهر أيضاً فى عبارة « شوكاً وحسكاً تنبت لك » ... لأول مرة نسمع عن الشوك والحسك ، إذ لم يرد لهما ذكر من قبل فى نباتات الأرض وحينما نظر الله إلى كل ما عمله فإذا هو حسن جداً : إن الأرض العطشانة ، والمحرومة من بركة الله وخيره ، يمكن أن تنتج شوكاً وحسكاً . وهى تحرم من بركة الله وخيره ، بسبب خطية الإنسان . لذلك قال له الله « ملعونة الأرض بسببك » .

إن الإنسان البار ، به تتبارك الأرض ، والإنسان الخاطىء بسببه تعلن الأرض ، كما ورد فى فى سفر التثنية (تث ٢٨) .

يقول الرب لمن يحفظ وصاياه « مباركاً تكون فى المدينة ومباركاً تكون فى الحقل . ومباركة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك ... » (تث ٢٨ : ٣ ، ٤) . و بعكس ذلك يقول الرب لمن لا يحفظ وصاياه « ملعوناً تكون فى المدينة ، وملعوناً تكون فى الحقل ... ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك » (تث ٢٨ : ١٦ ، ١٨) .

لما لعنت الأرض ، قل خيرها ، وأصبحت تنتج شوكاً وحسكاً .

وجاء المسيح الذى حمل خطايانا على الصليب ، فحمل أيضاً على جبينه الشوك والحسك اللذين أنتجتها خطية الإنسان .

قلنا إنه كانت من نتائج الخطية اللعنة . وماذا أيضاً ؟

٢- المـوت

« يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧) .

كان الموت هو العقوبة الأساسية للخطية .

والكل قد خضع له ، مات آدم وحواء ، ومات كل نسلهما ، وسيموت النسل الذى يولد فيما بعد . و يظل الموت إلى أن ينتهى هذا العالم .

و يقول الكتاب إن « آخر عدو يبطل هو الموت » (١ كو ١٥ : ٢٦) . يحدث هذا فى نهاية العالم ، حينما تتغير طبيعتنا فى القيامة العامة ونلبس الحياة ، أو كما يقول الرسول « هذا

المائت يلبس عدم موت » (١ كو ١٥ : ٥٣) . عندئذ فقط نقول له « أين شوكتك يا موت ؟! » ... أما قبل هذه القيامة ، فتظل شوكة الموت فى أجسادنا جميعاً ... نتيجة لخطيئة آدم وحواء ...

*** ولكن لم يكن ممكناً أن يموت أبوانا فى التو واللحظة ...**

وإلاَّ تكون البشرية كلها قد إنتهت وزالت ، و يكون الشيطان قد إنتصر فى المعركة إنتصاراً ساحقاً ، ولا يكون هناك خلاص ، الخلاص الذى أعده الرب لآدم و بنيه ...

لذلك تأجل هذا الموت إلى حين ، ر يثما تلد حواء بنين وتر بيهم . لأنه فيما بعد سيأتى من نسل المرأة من يسحق رأس الحية ، و يطلب ويخلص ما قد هلك .

*** ومع تأجيل هذا الموت الجسدى ، كانت هناك أنواع أخرى من الموت ، تم بعضها فى التو واللحظة :**

هناك الموت الروحى ، وكما قال القديس أوغسطينوس [موت الجسد هو إنفصال الروح عن الجسد . أما موت الروح ، فهو إنفصال الروح عن الله] ...

ولهذا أعتبر الكتاب أن الخطية موت ، فقال الآب عن إبنه الضال « إبنى كان ميتاً فعاش » (لو ١٥ : ٢٤) . وقال الرب لملاك كنيسة ساردس « إن لك إسماً إنك حى ، وأنت ميت » (رؤ ٣ : ١) . فالخطية موت روحى ، لأنها تفصل الإنسان عن الله ، لأنه لا شركة للظلمة مع النور...

*** وآدم وحواء قد ماتا هذا الموت الروحى يوم أكلا من الشجرة ، وماتا أيضاً موتاً آخر أدبياً :**

فى هذا الموت الأدبى ، ضاعت كرامة هذا الإنسان الأول ، وفقد الحالة الفائقة للطبيعة التى خلق عليها ، كما سنشرح فى النقاط المقبلة ... وأكبر تعبير على هذا الموت الأدبى ، أن الله طرده من الجنة . وعبارة « طرد » تعنى كثيراً من جهة الموتين الأدبى والروحى . على أنه من جهة هذين الموتين ، ظل الله يعمل عملية إقامة من الأموات بالنسبة إلى آدم و بنيه ، لكى يرجعهم إلى رتبهم الأولى ، ولكى تتم مصالحة بينهم و بين الله . ولكن الأمر كان يتوقف على مدى الإستجابة الفردية لعمل النعمة فى كل إنسان على حدة ...

* بق الموت الأبدى ، وهو أخطر ما فى حكم الموت : وهو الذى خلصنا منه المسيح بالفداء ، حين مات عنا ...

ولكن آدم وحواء وبنيها جميعاً ، ظلوا تحت حكم الموت فى كل العصور السابقة للفداء . وكان كل الذين يموتون ، يذهبون إلى الجحيم . والمؤمنون منهم ، الراقدون على الرجاء ، يرتلون مع داود « لأنك لا تترك نفسى فى الجحيم ، ولا تدع قدوسك يرى فساداً » (مز ١٥ : ١٠) .

ولأن الخطية حرمت الإنسان من الحياة ، وأوقعته فى الموت ، لذلك رأينا أمراً خطيراً قد صدر من الله « وأقام شرق جنة عدن الكاروبيم ، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (تك ٣ : ٢٤) .

٣ـ فقدان الصورة الالهية

فى حالة البر الأولى ، كان آدم على صورة الله ، ومثاله ، كما قال الله « نخلق إنساننا كشبهنا » . أما فى حالة السقوط ، فقد فقد الإنسان هذه الصورة الإلهية .

وفساد الطبيعة البشرية ، الذى سنتحدث عنه فى النقاط التالية ، لم يعد يتفق مع الصورة الإلهية التى كانت له يوم خُلق .

ولهذا نجد الله يخاطبه بلغة أخرى تتفق وصورته فى الخطية ، فيقول له « لأنك تراب ، وإلى التراب تعود » ...

كان صورة الله ، فأصبح تراباً .

ننتقل إذن إلى النقطة الرابعة من نتائج الخطية ، وهى :

٤ـ فساد الطبيعة البشرية

فقدت الطبيعة البشرية نقاوتها الأولى ، وبساطتها الأولى ، وعرفت الخطيئة ، وأختبرتها ، ودخلت فى ثنائية معرفة الخير والشر ، وفى الصراع بين الجسد والروح ، وهبطت إلى المستوى الجسدى أحياناً كثيرة . أصبح من السهل أن تخطىء ...

وقد رأينا فيما بعد ، كيف إنهارت هذه الطبيعة البشرية ، وإنحدرت إلى مستويات

مؤسفة ، وتوارثت ألواناً من الفساد ، إلى أن وصلت إلى محبة الخطية ، وإلى العبودية لها ، وإلى إنكار الله ، والجهل به .

وفقد آدم وحواء هيبتها ، وسلطتها على الطبيعة ، وعلى الحيوان ، فتمردت عليها الأرض ، وصارت تنبت لها شوكاً وحسكاً ، وتمرد عليها الحيوان ، وقامت عداوة معه ...

وظهر فساد الطبيعة البشرية أيضاً فى إنحلالها ، فى تعب الجسد وتعب النفس ، وستبق فى هذا الفساد إلى يوم القيامة حين « يلبس الفاسد عدم فساد » (١ كو ١٥ : ٥٤) .

٥- تعب النفس

لأول مرة نسمع عن أمراض النفس : نسمع فى قصة آدم وحواء عن الشهوة ، وعن الخوف ، وعن الخجل « أى الخزى » ، ثم عن معرفة آدم لحواء ... وعن سائر تعب الروح الذى ذكرناه فى تحليل خطاياهما .

وكل هذه كانت بداية ، إلى أن نسمع فى قصة قايين ، فى حياة أبوية آدم وحواء ، عن الحسد والغضب والقتل ، وعن القلق والرعب وفقدان السلام الداخلى (تك ٤) .

وبدا أن أمراض النفس والروح قد أخذت تزداد ، كمظهر من مظاهر فساد الطبيعة البشرية .

٦- تعب الجسد

أصبح آدم يأكل خبزه بعرق جبينه . يعمل فى الأرض و بالتعب يأكل منها كل أيامه ...

وأصبحت حواء بالوجع تلد أولاداً ، كما قال لها الرب « تكثيرا أكثر أتعاب حبلك » (تك ٣ : ١٦) .

وثمة تعب آخر ، هو شهوات الجسد وغرائزه ، إشتياقاته ...

وقبل الخطيئة ، لم يكن هناك تعب ، ولا وجع ... وما هذا كله إلاّ مظهر آخر لفساد الطبيعة البشرية .

* * *

وبدا أن الحية لم تصدق فى خداعها . فبدلاً من إرتقاء الإنسان ليصير مثل الله ... إنحدر إلى أسفل .

وكان إنحدار آدم وحواء ، هو « مبتدأ الأوجاع » .

ولم يعد هناك من حل ، سوى إنتظار الخلاص الذى يأتى به المسيح ، حيث ينضح علينا بزوفاه فنطهر ، و يغسلنا فنبيض أكثر من الثلج ، ويمنحنا بهجة خلاصه (مز ٥٠) .



- ٢ -

هابيل

أول من وصف بأنه بار (عب ١١: ٤)

وأخوه قايين

أول قاتل على الأرض (تك ٤: ٨)

لا شك أن قصة قايين وهابيل ، هى من القصص المؤثرة ، لأنها تمثل أول حادث قتل يحدث بين أخين ، بل بين شقيقين ، من أب واحد وأم واحدة ، ولم يكن يوجد فى الأرض أخوة غيرهما ... أى أن قايين لم يكن له فى الدنيا سوى أخيه هابيل ، ومع ذلك قام عليه وقتله ... !

كيف دخلت الخطية ؟ وكيف بدأت ، وكيف تطورت ؟ وماذا كانت نتائجها ؟

لقد ولد قايين ميلاداً حسنا ، وسمى قايين . لأن أمه أعتبرت أنها قد أقتنته من الرب (تك ٤ : ١) ، أى حصلت عليه من الرب ... وكان قايين عاملاً فى الأرض ، وكان أخوه هابيل راعياً للغنم .

وظل هذان الأخوان يعيشان معاً فى هدوء ، إلى أن دخل بينهما نوع من التنافس ... لقد قدم كل منهما قرباناً للرب ، فقبل الرب قربان هابيل ، ولم يقبل قربان قايين . فغضب قايين على أخيه هابيل وقتله ...

مشكلة هابيل ، إنه إنسان مقبول من الرب !

هكذا كانت مشكلة مريم أيضاً ، التى أختارت النصيب الصالح ، وجلست عند قدمى المسيح ، فرضى عنها . وإستاءت أختها مرثا ووجهت إليها اللوم وغضبت عليها ... !

ما ذنب مريم ، إذا جلست عند قدمى المسيح ورضى عنها ، وما ذنبها إذا كان عمل مرثا ليس فى مستوى عملها ؟!

قايين وجد أن قربانه غير مقبول كأخيه ، فدخله الحسد ... وكان هذا الحسد بدء الشر الذى دخل قلبه ، وإنتهى به إلى قتل أخيه . وربما كان الحسد أيضاً هو الذى دفع الشيطان إلى إسقاط آدم وحواء ، إذ رأى أن الله قد أحبهما وباركهما ، وأعطاهما سلطاناً ومركزاً ، وقد خلقهما على صورته ومثاله ، فحسدهما الشيطان ، ودبر خطته لإسقاطهما . ولذلك نقول فى القداس الإلهى « والموت الذى دخل إلى العالم بحسد إبليس ، هدمته ... » .

مساكين هم الأشخاص الذين يسيرون فى طريق الرب ، لأن الشر يتضايق من نجاحهم ومحبة الله لهم . فيدبر لهم ما يشاء أن يدبر ... إنه حسد الشياطين وأعوانهم ...

سواء فى ذلك آدم ، الذى حسده الشيطان فى الجنة ... أو هابيل البار، الذى قدم لله قرباناً أفضل من أخيه قايين ، فحسده أخوه وقتله .

أو داود ، إذ مسحه صموئيل ملكاً ، ونجح فى حياته ، فتضايق أخوته ، وتضايق أيضاً شاول الملك ، وحسده ، ودبر لقتله ...

أو يوسف الصديق ، إذ كان إنساناً موهوباً ، ومحبوباً عند أبو يه ، فحسده أخوته ، و باعوه كعبد ...

أو السيد المسيح نفسه ، الذى كان يجول يصنع خيراً : فإذ رأى الكهنة أن « الكل قد ساروا وراءه » ، حسدوه ، وجمعوا عليه شهود زور ، وإتهموه باطلاً ، وقدموه للصلب ...

وهكذا كانت مشكلة هابيل ، أن قربانه كان مقبولاً أمام الله ، فتضايق أخوه ، و يقول الكتاب فى ذلك : « **فإغتاظ قايين جداً ، وسقط وجهه** » (تك ٤ : ٥) .

إذن قايين لم يكن يسعى إلى محبة الله ، وإلى إرضاء قلب الله ، إنما كان يبحث عن كرامته الشخصية ورضاه عن نفسه وعن مركزه .

لو كان يبحث عن محبة الله ، لكان فى حالة رفض الله لقربانه ، يفتش كيف يرضى الرب ، ولا مانع من أن يغير قربانه ، و يقدم ذبيحة كهابيل ، ويحسن تصرفه . ولعل هذا ما قصده الرب بقوله له : « إن أحسنت ، أفلا رفع »(ع ٧) أى أفلا يرتفع وجهك ، إن أحسنت التصرف ، وإن أحسنت التقدمة ، وإن أحسنت التفكير والشعور...

كانت أمامه فرصة لتحسين موقفه ، ولكنه لم يستغلها ، ولم يستفد من توجيه الرب ، الذى تنازل وكلمه ...

كان أمامه أن يتضع ، و يشعر أن قربانه « من ثمار الأرض » ليس هو حسب مشيئة الرب ، وإنما مشيئة الرب هى أن يقدم ذبيحة ، محرقة سرور للرب ، كما فعل أخوه البار هابيل . ولكن قايين لم يشأ أن يعترف بينه و بين نفسه أنه مخطىء فى تقدمته ، وأنه يجب أن يسلك كأخيه . إنما ركز على كرامته .

كانت ذاته تتعبه . وليته كان يحب ذاته محبة سليمة !

إن الذى يحب ذاته محبة حقيقية طاهرة من الكبرياء والعناد ، لا مانع مطلقاً من أن يصحح لهذه الذات أخطاءها ، و يعمل على تطهيرها من نجاساتها . أما محبة الذات الممتزجة بالكبرياء ، فإن كبرياءها تعميها عن رؤية أخطائها ، فتظل كما هى ، وتصر على سلوكها ... !

وهكذا كان قايين ، محبته لذاته ، حطمت هذه الذات ...

محبة جاهلة ، غير حكيمة ، لا تعرف النافع لها من الضار... وقديماً فكر الشيطان فى ذاته ، فقال « أصعد إلى السموات ، أرفع كرسى فوق كواكب الله ... أصير مثل العلى » (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . وبهذه المحبة الخاطئة لنفسه ، ضيع نفسه ...

وبالمثل أحب الإنسان الأول ذاته محبة خاطئة . وإذ أراد أن يصير مثل الله عارفاً الخير والشر ، أضاع هذا الإنسان نفسه ، وطرد من الجنة ، ودخل فى حكم الموت .

قايين أيضاً ركز كل تفكيره فى ذاته ، كيف يتفوق على أخوه ويحظى برضى الرب ؟! ... فرأى أن يتخلص من أخيه ...

يتخلص من هذا البار ، الذى كلما يراه تصغر نفسه و يشعر أنه أقل ... ورأى أنه إذا تخلص منه ، لا يبقى أمامه شخص أفضل ، يثير حسده .

كانت كبرياء الذات ، أهم عنده من نقاء الذات .

لقد نبهه الرب إلى أن هناك « خطية رابضة » . وقال له بكل وضوح « وإن لم تحسن ، فعند الباب خطية رابضة ، وإليك إشتياقها ، وأنت تسود عليها » .

مازال فى متناول يدك أن تتخلص منها ...

إن الخطية مازالت على باب فكرك ، وعلى باب قلبك ، وعلى باب إرادتك . ومازالت إرادتك فى يدك ، وأنت تسود عليها ... فإحذر لنفسك قبل أن تتورط ...

ما أعمق هذا الحنو ، فى معاملة الله للخطاة ...

إنه يظهر لقايين ، أول إنسان هلك على الأرض . و يكلمه ، و يشرح له التجربة التى أمامه ، و ينصحه ، بل و يناقشه أيضاً : « لماذا سقط وجهك ؟ ليس السبب راجعاً إلى أخيك ، بل يرجع إليك أنت نفسك . إنك لم تحسن التصرف . وإن أحسنت سيرتفع وجهك . علاج مشكلتك فى أن تغير مسلكك وتحسن التصرف ، وليس فى أن تستسلم للخطية ... إحترس لنفسك عند باب قلبك وفكرك توجد خطية رابضة . حاول أن تنتصر عليها . فأنت مازلت تسود عليها ...

حنو من الله ، أن يظهر للخاطىء ، و يشرح له ، ويحذره قبل أن يسقط ، و يريه طريق التخلص من خطيته ، و يسنده بنصائحه فى وقت تجربته ومحاربة العدو له .

قد يخطىء البعض ، ويظن أن الله لا يظهر إلا للقديسين !

إن ظهوره لقايين قبل سقوطه فى خطية القتل ، وتحذيره له ، إنما هو مثال عجيب لمحبة الله وطول أناته ، فى العهد القديم ، بل منذ بدء الخليقة ...

وكأنه يقول لقايين : تعال يا حبيبي ، لماذا أنت مغتاظ ، **ولماذا يسقط وجهك ؟ أنا** أريد أن أخلصك من غمك ، وأعيد إليك سلامك . إن الخطية هى التى أفقدتك سلامك . تخلص منها ، يرجع إليك سلامك ...

لا تظن أن هابيل هو سبب متاعبك ... كلا ، إن متاعبك سببها الخطية الرابضة . فإفحص نفسك جيداً ...

سبب متاعبك ، يكمن فى طريقة نظرتك إلى الأمور وفى ردود الفعل داخلك إزاء نجاح أخيك ...

لو كانت فى قلبك محبة ، لكنت تفرح وتسر ، إن رضى الرب على أخيك ، فلا تغتم ولا تغتاظ . بالمحبة ، تفرح لفرح أخيك ، وتفرح لرضى الرب عليه ...

لكن قايين لم يفرح لفرح أخيه ، ولقبول قربانه ...

مثاله كان الإبن الأكبر ، الذى لم يفرح إذ قبل الأب أخاه الأصغر ، وألبسه الحلة الأولى ، وجعل خاتماً فى أصبعه ، وذبح له العجل المسمن .(لو١٥ : ٢٧ ، ٢٨) .

ذلك الأخ أيضاً إغتاظ ، ولم يكن قلبه مستقيماً تجاه أخيه ، وكان يفكر فى ذاته وليس فى أخيه ، ونفس الحسد أتعبه ...

حقاً ، إنها قصة متكررة ، تحدث فى كل جيل ، سببها عدم نقاوة القلب ، والإستسلام لمشاعر الغيرة ...

لماذا يكون نجاح أخيك ، له رد فعل خاطىء فى قلبك ؟! « كان ينبغى أن تفرح وتسر » لأن الله قبل قربان هابيل ... كان ينبغى أن تفرح أيضاً لأن هابيل قد كشف لك الطريق الصالح الذى يرضى الرب ، حتى تسير فيه أنت أيضاً ، وتحصل على نفس الرضى والقبول ...

العجيب أن قايين ، بعد أن كلمه الله ، لم يستجب لكلمة الله ، ولم يفتح لها قلبه ، بل فتحه للخطية ...

بعد أن نصحه الرب ، لم يستفد من النصيحة ، إنما تورط فى الخطية ، وبالأكثر ، وقام على أخيه فقتله !

إنه يذكرنا بالشيطان فى قصة أيوب الصديق ، لما وقف أمام الله ، ولم يستفد من وجوده فى حضرة الله شيئاً . وخرج من عند الله لكى يتعب أيوب الكامل والمستقيم ، ويهدم له بيته ، و يقتل أولاده و يضيع كل غناه... و بعد أن وقف ثانية أمام الله ، إزداد فى شره ، وضرب أيوب بقرح ردىء ، دون أن يستفيد شيئاً من اللقاء مع الله وسماع كلمته... !

يذكرنا أيضاً بيهوذا الإسخر يوطى ، الذى لم يستفد من عشرته للسيد المسيح ، ولا من أكله معه ، وغمسه لقمته فى نفس صحفته ، ولم يستفد من كلام الرب وتحذيراته ، وقام بعد العشاء ليخون سيده و يسلمه !

وسائط النعمة يستفيد منها من يشاء ، و يرفضها من يشاء . إنها لا ترغم الإنسان على عمل الخير...

الشاب الغنى ، تقابل مع السيد الرب ، وسمع نصيحة نافعة من فم الإلهى ، ولكنه بعد سماعها مضى حزيناً ، ولم يقل الكتاب إنه نفذ شيئاً من تلك النصيحة...

أمر محزن ومخجل ، أن يسمع إنسان نصيحة من فم الرب نفسه ، ثم يمضى حزيناً ، ولا ينفذ . هكذا قايين أيضاً ...

إذن ، فلا يجوز أن يحتج أحد و يقول « مشكلتى الوحيدة هى عدم وجود مرشدين روحيين . ولو كان لى مرشد روحى حكيم ، لصرت قديساً » ...

هوذا أمامنا أمثلة لأشخاص أرشدهم الرب نفسه و لم يستفيدوا ، لأن القلب رافض أن يستجيب ، مثل الأرض التى الق عليها البذار الرب نفسه ، فأنتجت شوكاً ... أو سمحت للشوك أن يخنق زرعها ، وللطير أن يلتقط بذارها ...

لقد تقابل قايين مع الرب ، وللأسف لم يستفد . سعى الرب إليه وأراه الطريق ، ولكنه رفض أن يسير فى طريق الرب ، ولم يستجب إلاّ لفكر قلبه الردىء .

المشكلة تكمن فى عدم وجود إستعداد داخلى .

لا تقل « إننى أذهب إلى الكنيسة ولا أستفيد » ... لأن غيرك يذهب و يستفيد . لو كنت تريد أن تستفيد لأستفدت . إن لم تستفد من القداس ، يمكنك أن تستفيد من العظة . وإن لم تستفد من العظة ، يمكنك أن تستفيد من مجرد القراءات ، بل من مجرد

الوجود فى الكنيسة فى جورجى ... بل يمكنك أن تستفيد - لو أردت - من منظر الأيقونات ، ومن الشموع ... أو على الأقل تخلو إلى نفسك مع الله ، ولو لحيظات ...

وهكذا ، لأن قايين لم يكن لديه إستعداد داخلى للإستفادة ، لم ينتفع بكلمة الرب له ...

لم تكن له أذنان للسمع ، فلم يسمع ...

ربما أثناء حديث الرب معه ، كان منشغلاً بالغيرة التى فى قلبه ، وكان الحسد يسد أذنيه ، وكان الإنفعال الداخلى أعلى صوتاً فى القلب ، وكانت ذاته حائلاً يحجب حكمة الوصية والنصيحة ...

« وكلم قايين هابيل » (تك ٤ : ٨) . ترى ماذا قال له ؟

أتراه قال له « هيا بنا إلى الحقل ، نقضى الوقت بعيداً عن الأسرة ، معاً ... بعيداً عن ملاحظة الأبوين » ... على أية الحالات ، لم يكن هابيل ينتظر خيانة من أخيه قايين . إنه شقيقه ، ويمكن أن ينام إلى جواره و يغمض عينيه ، دون أن يخشى شراً ، فى ثقة بهذه الأخوة ... لو كان فى قلبه أدنى شك من جهته ، لإحترس منه . ولكن حينما يأتى الشر ممن هم فوق مستوى الشك ، حينئذ تكون المأساة أعمق وأكثر تأثيراً فى النفس ...

« وقام قايين على هابيل أخيه وقتله » . وهكذا تطورت به الخطية من سيء إلى أسوأ ، وهو مستسلم لها ...

تطور من غيرة ، إلى حسد ، إلى غيظ ، إلى حقد ، إلى فكر الشر ، إلى تدبيره وتنفيذه ، إلى قتل أخيه ... و بعد أن كانت الخطية رابضة عند الباب ، دخلت إلى قلبه ، وسيطرت على فكره ومشاعره وأعصابه وإنفعالاته .

و بعد أن كان يسود عليها ، صارت تسود عليه ...

ودفعته الخطية فى طريقها ، فخضع لها ونفذها ... وحينما نفذ إختفت من أمامه كل المُثل : لا محبة ، ولا أخوة ، ولا شفقة ، ولا إرضاء الله ...

وربما ظن قايين ، أنه لا يوجد أحد يراه ...

وأنه سوف لا يعلم أحد بجريمته ، وأنه قد تخلص من هذا المتفوق الذى تصغر نفسه

أمامه ، وأن صوت هابيل قد سكت إلى الأبد .

وهابيل البار ، لم يستطيع أن يدافع عن نفسه .

وهكذا بدا أن الشر قد إنتصر على الخير ...

وبدا أن الخير لم يستطع أن يدافع ، فهزمه الشر ...

نعم ، إن الشر فى الأرض ، يبدو دائماً أكثر جرأة ، وأكثر عنفاً ، وأكثر تسلطاً . يعرف أن يضرب ، و يعتدى ، و يقتل ... والطرق أمامه مفتوحة كلها ، بعكس الخير الذى يعف عن كثير من الوسائل التى يستخدمها الشر .

إن قصة قاين وهابيل ، ترينا مدى إمكانيات الشر :

الشر يستطيع أن يدبر مؤامرات ، وأن يتنكر لكل القيم ، وأن يستخدم كل الوسائل مهما كانت خاطئة . يستطيع إن يخون ، وأن يخدع ، وأن يتعدى ، وأن يقتل ، ومع كل ذلك يجرؤ أن يستر فعلته بالأكاذيب . و يقول فى جرأة حتى أمام الله « أحارس أنا لأخى »؟! ...

الشر إستطاع بالنسبة إلى السيد المسيح نفسه ، أن يقدم تهماً باطلة ، وأن يحضر شهود زور ، وأن يتملق قيصر ، وأن يثير الشعب كله ، وأن يصلب البار .

والشر إستطاع أن يغتصب نابوت اليزرعيلى ، وفى نفس الوقت يلفق له تهماً تجعله يستحق الموت ... ! (١ مل : ٢١) .

نعم إن الشر قد ينتصر على الخير ... ولكن القصة لها تكملة ... وتكملتها إن الله موجود ، وإنه يحكم للمظلومين .

ربما لم يحسب قاين حساباً لوجود الله ولتدخله ، وظن أن الموضوع بينه و بين هابيل فقط ، وليس من ثالث يتدخل بينهما ، لكى يكمل القصة ، و يقيم التوازن .

هذا الثالث العادل ، تدخل بين الخير والشر ...

تدخل ليحاسب ويحاكم ، و يعاقب ، و يشرح للشر أن الأمر لم ينته بعد ، وأن هناك قوة أكبر وأن هناك عيناً ترى ، وقضاء يحكم . وأن الله لا يترك عصا الخطاة تستقر على نصيب الصديقين .

وأثبت هذا الثالث ، أن إنتصار الشر هو إنتصار زائف ومؤقت ، وأن العبرة بالنهاية ، والنهاية هى إنهيار الشر.

إذن ، لا تفقد الرجاء أبداً . إن أصابك شر ، وحتى إن قوى الشر عليك ، وعلى ظهرك جلدك الخطاة وأطالوا إثمهم ، فلا يتزعزع قلبك . ثق أن الله يرى و يسمع ، و يكتب أمامه سفر تذكرة (مل٣ : ١٦) . وثق أن الرب صديق هو يقطع أعناق الخطاة (مز ١٢٨) ...

لا تنظر إلى أوائل الأشرار ، وإنما إلى نهايتهم ... وأسأل نفسك : من الذى إنتصر: قايين أم هابيل ؟

هابيل كُتب إسمه فى سفر الحياة وهو « وإن مات ، يتكلم بعد » (عب ١١ : ٤) . أما قايين فعاش على الأرض معذباً طول أيامه ، قلقاً ، خائفاً ، فاقداً سلامه . وإنتظرته عذبات فى الأبدية أشد آلاماً .

إن الشر قد يرتفع على الخير ، ولكنه يتبدد : كمثال النار والدخان . الدخان يرتفع إلى فوق وفيما هو يرتفع ، تتسع رقعته ، وتقل حدته ، و ينتشر فيندثر و يضعف ويختفى . أما النار ، إن ظلت تحته ، إلاّ أنها تستمر بعده فى قوتها وفى نقاوتها . إنها أقوى وأشد حرارة ... ولا تبالى بصعود الدخان إلى فوق ، فوقها ...

هابيل لم يدافع عن نفسه ، فدافع الله عنه .

لم يرو لنا الكتاب أن هابيل دافع عن نفسه ، أو أنه قاوم الشر ، أو حتى أنه شكا أو إستنجد أو إستغاث . لقد لاقى مصيره فى صمت ، ومات بيد أخيه ...
ولكن القصة لم تتم فصولاً . إذ إن الله واجه قايين وسأله « أين هابيل أخوك ؟ » .
فأجاب « لا أعلم ، أحارس أنا لأخى ؟! » ...

وهكذا قادته خطية القتل إلى خطية الكذب ، فكذب على الله نفسه ، وقال له لا أعلم ، وهو أكثر الناس علماً بمصير أخيه ! ... أو كان الوحيد من البشر الذى يعلم بمصير أخيه !!

كان قايين كفأر فى مصيدة ، يحاول أن يفلت فلا يستطيع . إنه يلتمس طريقاً للهروب من مسئولية جريمته . يدعى عدم المعرفة . يدعى أنه غير مسئول عن أخيه وعن

حراسته !! لقد أمسكه العدل الإلهى . فأخذ يكذب على فاحص القلوب والكلى ، والعارف بالخفيات والظاهرات ، على الله الذى أنذره من قبل ولم يسمع ...

حقاً ، إن الكذب هو الإبن البكر لكل خطية . هو الغطاء الذى يحاول الخاطىء أن يغطى به على خطيئته فلا تظهر...

إنه أسهل طريقة ، وأول طريقة ، يحاول بها أن يهرب من المسئولية ، من العقوبة ، أو من العار والفضيحة ... يندر أن يوجد خاطىء لا يكذب الذي يعترف بخطيئته ، هو التائب . أما الخاطىء المستمر فى خطيته فإنه يكذب لسترها ... ولكننا نفهم أن يكذب خاطىء على إنسان مثله . أما أن يكذب على الله نفسه ، فهذا أمر خطير له دلالته .

إن كذب قايين على الله ، يدل على بعده عن الإيمان . إنه لا يعرف من هو الله ، وما هى قدرته ، وما هو عمله غير المحدود !

والعجيب أن الله هنا لم يجرح شعور قايين ، ولم يقل له إنه كذاب . بل لم يجادله إطلاقاً فى كلامه ، وإنما واجهه بالحقيقة التى تكشف كذبه ، فقال له « صوت دم أخيك صارخ إلىّ من الأرض » ... إن هابيل لم يتكلم ، ولكن دمه له صوت ، صارخ من الأرض ...

قد يصمت المظلومون . ولكن صمتهم له صوت صارخ إلى الله .

والله يسمع هذا الصوت ، صوت صمتهم الصارخ ... إن يوسف الصديق قد ظلمه أخوته و وظلمته إمرأة فوطيفار ، وصمت ... ولكن صمته كان يصرخ إلى الله ، وسمع الله ، وتدخل لينقذه من الظلم .

والعمال الذين بخست أجورهم ، يقول الكتاب إن هذه الأجرة المبخوسة تصرخ ، والصراخ قد دخل إلى أذُنى الرب (يع ٥ : ٤) .

إن الله يقاتل عنكم وأنتم تصمتون ، لأنه يسمع صوت صمتكم .

إذا ظلم إنسان وسكت ، فلا تظن أن الأمر قد إنتهى عند هذا الحد . فإن صوت سكوته يرن فى أذُنى الرب ، يقول الوحى الإلهى « من أجل شقاء المساكين وتنهد البائسين ، الآن أقوم يقول الرب ـ أصنع الخلاص علانية » (مز ١١) . نعم ، قم أيها الرب الإله ، وليتبدد جميع أعدائك ، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضى إسمك القدوس ...

« صوت دم أخيك صارخ إلىّ من الأرض . فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك » .

هنا بدأت العقوبة . هنا يجد الشر من يقف فى طريقه ، و يقاومه « لى النقمة ، أنا أجازى يقول الرب » (رو١٢ : ١٩) .

إن لم يجد الشر رادعاً على الأرض ، فهناك رادع من السماء .

ولأول مرة هنا يلعن الرب إنساناً ... عندما أخطأ آدم قال له ملعونة الأرض بسببك ، ولكن لم يلعنه شخصياً .

لعنت الحية ، والأرض ، ولأول مرة هنا يلعن الإنسان .

كان قايين قد فقد الصورة الإلهية نهائياً ، الصورة التى كانت للإنسان حينما خُلق على شبه الله ومثاله ... إن قايين لم تغره الحية كحواء ، ولكنه سقط من الداخل . رداءة قلبه قد أسقطته ...

إين الحية فى سقطة قايين ؟

و بلعنته ، لُعن كل نسله أيضاً ، وأصبحوا يدعون أولاد الناس ، بينما دعى أولاد شيث « أبناء الله » (تك٦ : ٢) . وإستمرت هذه اللعنة ، حتى أفنى الله كل أبناء قايين بالطوفان .

« ملعون أنت من الأرض ، التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك » هذه الأرض التى تنجست بجريمة القتل ، وقبلت الدم المسفوك :

« متى عملت الأرض ، لا تعود تعطيك قوتها » (ع ١٢) .

الأرض تتمرد عليك ، ولا تعطيك الخير الذى تقدر عليه ... بدلاً من أن تعطيك عشرين أردباً ، تعطيك إثنين أو ثلاثة . لا تجد بركة فى عمل يديك ، ولا بركة من خير الأرض وثمارها ... بالنسبة إلى البار ، قال الرب « مبارك تكون ثمرة أرضك » (تث٢٨ : ٤) . و بالنسبة إلى الخاطىء . لعن الله ثمرة الأرض (تث٢٨ : ١٨) ... فلا تعود تعطيك قوتها ...

إن ثمار الأرض فى يد الله ، يباركها حينما يشاء ، مثلما بارك غلة العام السادس ، فكان يكفى ثلاثة أعوام ...

أما إذا سلك الإنسان فى الخطية ، فقد يعاقبه الله بتمرد الأرض عليه ، فلا تعطيه قوتها ، لا تعطيه خيرها ، كما تمردت من قبل على آدم ، وصارت تنبت له شوكاً وحسكاً .

المسألة إذن لا تنحصر فقط فى خبرة الإنسان بالزراعة ، ومدى إتقانه لعمله فيها وخدمته لها ، إنما يحتاج أيضاً إلى بركة . وتتبارك الأرض متى أرضى قلب الله ، وإلاَّ فإنه متى عمل الأرض لا تعود تعطيه قوتها . لهذا نحن نصلى من أجل ثمار الأرض ، لكيما يصعدها الله كمقدارها . و يفرح وجه الأرض ، فتكثر أثمارها .

لقد لعن الرب قايين ، وأمر الأرض أن تتمرد عليه ، وماذا أيضاً عن باقى عقوباته ؟ قال له الرب :

« تائهاً وهارباً تكون فى الأرض » ...

تفقد سلامك الداخلى . تحيا فى قلق وإضطراب وخوف تجرى وليس من مطارد . تشعر أن كل من وجدك سيقتلك . وهكذا بدأت الأمراض النفسية تعمق جذورها فى الإنسان .

فى خطية آدم ، دخله الخوف ، الخوف من الله وعقوبته،أما فى خطية قايين ، فقد دخله الخوف من الناس ، أو الرعب بمعنى أصح « يكون كل من وجدنى يقتلنى » ... (ع ١٤) .

لا سلام ، قال الرب ، للأشرار ...

الخاطىء يعيش منزعجاً بإستمرار . يخاف أن تنكشف خطيئته و يعرفها الناس . يخاف من الفضيحة والعار والسمعة السيئة . يخاف من العقوبة ، سواء عقوبة القآنون ، أو أنتقام من أساء إليه . يرتعب من نتائج أخرى لا يعرفها . يصور له الإضطراب أموراً أخرى كثيرة ستحدث ... وأعداء كثير ين يطاردونه .

داخله يزعجه أكثر من أى أزعاج خارجي ...

أيها لاقى العذاب أكثر : قايين أم هابيل .

هابيل قاسى الألم ربما لحظة أو لحظات . ضر بة قاتلة أصابته فات . أما قايين فإنه عاش العمر كله يتألم و يتعذب ، ويحطمه القلق والخوف والرعب والإضطراب . هابيل تألم بالجسد قليلاً . أما قايين فإن نفسه تعذبت من الداخل ، ولا شك أن عذاب نفسه كانت له نتائجه على الجسد أيضاً ...

هذه إحدى عقوبات الخطية تطارد الإنسان .

« فقال قايين للرب : ذنبى أعظم من أن يحتمل . إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ، ومن وجهك أختفى . وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » ...

نلاحظ هنا أن عبارة « ذنبي أعظم من أن يحتمل » لم تكن عبارة توبة ، إنما خوف من العقوبة ...

أى أن العقوبة أعظم من إحتماله ، عقوبة أن يكون تائهاً وهارباً فى الأرض ، ومهدداً من كل أحد بالقتل ... لذلك فإن الله الرحوم ، الذى يشفق حتى على القلوب القاسية إذا ما تذللت أمامه ، طمأن قايين الخائف « وجعل له علامة لكى لا يقتله كل من وجده » (ع ١٥) . بل قال له أيضاً « كل من قتل قايين ، فسبعة أضعاف ينتقم منه » .

ونلاحظ أن قايين لم يطلب مغفرة لخطيئته ، بل أنه لم يقل عبارة أخطأت . كل ما أتعبه هو العقوبة ...

وإذ جعل الرب علامة لكى لا يقتله كل من وجده ، « خرج قايين من لدن الرب ، وسكن فى أرض نود » . وسكن معه الخوف والرعب كل أيام حياته . لقد قتل أخاه فى لحظات . ولكن الخوف ظل يقتله كل يوم وكل ساعة وكل لحظة ... وظلت خطيئته أمامه كل حين ، لا تقوده إلى التوبة إنما تحطمه بالخوف . فمن أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ ...

هناك مجرمون يتمنون العقوبة ، هرباً من الإنزعاج الداخلى . وقد يسلمون أنفسهم للعدالة و يعترفون غير محتملين عذاب الضمير أو عذاب النفس .

داود ، قد غفر له الله خطيئته ، ونقلها عنه (١ صم ١٢) وسامحه من جهة العقوبة الأبدية . ولكن بشاعة الخطيئة ظلت أمامه فى كل حين (مز ٥٠) ، و بسببها كان يبلل فراشه بدموعه (مز ٦٠) ، ويمزج شرابه بالدموع ...

وظل قايين يطارده الخوف ، وترن فى أُذنيه كلمات الرب « تائهاً وهارباً تكون فى الأرض » .

وأصعب من طرده من وجه الأرض ، أنه طرد من وجه الله أيضاً ، فمن وجه الله يختفى ...

فالخطية هى إنفصال عن الله ...

والخاطىء ينفصل بخطيئته عن الله . يختفى الله من حياته ، ويختفى هو من أمام وجه الله . يوجد حاجز كبير بينه و بين الله . و يشعر بهذا الفاصل ، و يفقد الدالة ومشاعر الحب ...

ولا ينكسر هذا الحاجز إلاّ بالتوبة ، فيصرخ الإنسان قائلاً للرب : إلى متى تحجب وجهك عنى (مز ١٢) ...

ولكن الكتاب لم يقل إن قايين قد تاب ، ولم يقل إنه عاد فاصطلح مع الله . ولم يقل إن اللعنة زالت عنه ، أو أن الرب عاد فرضى عليه . لقد كان أول إبن لآدم وحواء بعد خطيئتها ، وللأسف كان إبناً للهلاك . كان أول قاتل ، وأول إنسان ملعون ، وأول إنسان إستحق العقوبة الأبدية ، إلى جوار عقوبته على الأرض .

إنه لم يقتل هابيل ، إنما فى الواقع قد قتل نفسه ... وهابيل لم يمت ، بينما قايين هو أول إنسان مات ، موتاً أبدياً .

هل تظنون أن هيرودس قد قتل يوحنا المعمدان ؟ أم الواقع أن هيرودس قد قتل نفسه . قتل روحه وحياته وأبديته . أما يوحنا فهو حى فى الفردوس يتنعم ...

إن الإنسان الذى يخطىء إلى غيره ، إنما يخطىء إلى نفسه .

وما أقل الخطاة ، الذين يشعرون أنهم يحطمون أنفسهم ...

فليعطنا الرب بركة هابيل البار ، أول من ذكر له الكتاب أنه قدم محرقة للرب ، وذبيحة مقبولة ، نذكرها بإستمرار فى كل قداساتنا . فنقول فى مقدمة أوشية بخور باكر « يا الله ، الذى قبل إليه قرابين هابيل الصديق ... إقبل إليك هذا البخور من أيدينا نحن الخطاة » ...

وذبيحة هابيل الصديق تعطينا فكرة عن أهمية التقليد فى الكنيسة . لأن هابيل فى تقدمته لم ينفذ وصية مكتوبة ، ولم تكن هناك شريعة مكتوبة فى أيامه ، ولا وصية مكتوبة تأمر بتقديم المحرقات ... إنما أخذها هابيل عن أبيه ، الذى أخذها من الله .

لم تكن هناك وصايا مكتوبة أيام هابيل . ولكن كان هناك التقليد أو التسليم . جيل يسلم جيلاً وصايا الرب . وظل الأمر هكذا فى كل ذبائح نوح وإبراهيم وإسحق و يعقوب وأيوب ، إلى أن وصلت إلينا الشريعة المكتوبة على يد موسى النبى ، بعد آلاف من السنين عاشتها البشرية بالتقليد والتسليم من الآباء ...

وجميل جداً هو قول الكتاب عن تقدمة هابيل البار : « **وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها** » (ع ٤) .

لقد قدم البار أفضل ما عنده للرب .

بل أنه نفذ وصية البكور ، قبل أن يقول الرب على يد موسى النبي « قدس لى كل بكر ، كل فاتح رحم ... إنه لى » (خر ١٣ : ٢) .

أتراه قدم البكور ، بروح النبوة ، قبل الوصية المكتوبة ؟ أم تراه فعل ذلك عن طريق التقليد والتسليم أيضاً ؟ أم هو القلب البار الحساس الذى يدرك مشيئة الرب ورغبته ، دون أن يتلقنها من معلم ...؟

إنه هابيل الذى شُهد له أنه بار ، وشهد الله لقرابينه . « وبه وإن مات يتكلم بعد » (عب ١١ : ٤) .

ولقد ذكره بولس الرسول فى مقدمة رجال الإيمان : فقال « بالإيمان ، قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين » (عب ١١ : ٤) . إذن لم تكن هذه الذبيحة مجرد أمر تعوده هابيل ، أو تسلمه بلا فهم . وإنما كان عملاً من أعمال الإيمان « به شُهد له أنه بار » ...

إن هابيل يمثل الإيمان وهو بكر ، فى بداية معرفته . إنه أول إنسان فى العالم ، وصف بكلمة الإيمان .

ترى ماذا كان الإيمان فى أيام هابيل ؟ ...

إنه على أية الحالات كان بداية لذلك المبدأ اللاهوتى القائل « بدون سفك دم لا تحصل مغفرة » (عب ٩ : ٢٢) .

الخطية كشفت عرى الإنسان آدم ، والذبيحة غطته ، حينما صنع له الله أقمصة من جلد (تك ٣ : ٢١) ، ورفض أن يغطى بورق التين ، وبشيء من ثمار الأرض .

وعرف هابيل هذه الحقيقة : الله يريد الدم لا ثمار الأرض . فقدم الدم من أبكار غنمه ومن سمانها . بينما قدم قايين من ثمار الأرض . وكأنه لا يؤمن بما حدث لأبويه ...

وكانت ذبيحة هابيل رمزاً لذبيحة السيد المسيح .

وكان هابيل فى ذبيحته كاهناً للرب .

ولم يكن قايين كذلك ...

ولم يذكر الكتاب خطية إرتكبها هابيل ، بل شهد له السيد المسيح نفسه أنه بار (مت ٢٣ : ٣٥) .

ويذكرنا بالبر الذى يناله كل من يقدم ذبيحة للرب .

أنستطيع أيضاً أن نقول إن هابيل كان أول شهيد :

لقد قُتل لأجل بره ، و بسبب ذبيحته التى قبلها الرب ، ورضى عنها ...

إنه أول دم بشرى يتقبله الرب .

إنه باكورة الدماء الزكية المقدسة التى تقبلتها السماء ، عبر الأجيال الطويلة ...

إنه الباكورة التى قدمت بكورها للرب .

وحسناً إنه إنتقل إلى السماء بعد تقديمه الذبيحة .

إنتقل وهو فى حالة بر ، مقدس بالذبيحة التى قدمها .

وعزيز عند الرب موت أتقيائه ...

فهرســت

صفحــة

في هذا الكتاب

بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

في سير قديسي الكتاب، لا نريد أن ندرس تاريخاً، إنما نريد أن نتقصى حياة.

ولقد كان الكتاب المقدس صريحاً معنا، وواقعياً إذ قدم لنا قديسين، من نفس طبيعتنا، التي يمكن أن تخطئ، وتسقط.

وكل خطأ في حياة أولئك القديسين، كان أمراً عابراً، ولم يكن خطأ ثابتاً في حياتهم.

والخطأ أعقبته صور رائعة من التوبة.

والكتاب يقدم لنا قديسين من كل نوع، ومن كل سن، وفي كل حقبة.

ندرس في حياتهم عمل النعمة الإلهية، كيف صادقتهم وكونتهم، أو كيف حولتهم من ضعفاء إلى أقوياء.

وندرس أيضاً معاملات الله مع الناس.

نتركك إلى هذه الصفحات لتقرأ القصة البشرية منذ آدم.

وليتك تحتفظ بهذه المجموعة كاملة، لكل شخصيات الكتاب، القديس منها، وغير القديس.

البابا شنوده الثالث

الثمن ١٠٠ قرشاً